مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

سرديات التأطير المُهادِنة

-تتمة-

سامي كريم موشي
باحث عراقي

2024

- بحث محكم
- قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية
- 2024 11--25

جميع الحقوق محفوظة © 2024

سرديات التأطير المُهادِنة[1]

-تتمة-

1 - البحث مقتطف من كتاب «جينالوجيا الاختلاف أنساق الجندر في سرديات الثقافة العربية»، سامي كريم موشي، مؤسسة مؤمنون بلاحدود للنشر والتوزيع.

ومن الطبيعي أنْ تسعى المنظومة الجندرية إلى خلق العديد من الأخبار التي تسهم في عملية إخضاع المرأة إلى الرجل بصورة كلّية، بما يجعلها مستلبة الإرادة والقيمة والحقوق إلا بما أرادته المنظومة الذكورية أن تمنحها إياها، فليس من الغريب أن نجدها مستلبة حتى على مستوى ممارساتها العبادية، فضلاً عن حق المبادرة والطلب أو الرفض؛ لأن ذلك بحسب العقلية المجندرة سيحل عليها اللّعن الإلهي، فهي ليست سوى هدية تهدى إلى الرجل وهي بمنزلة الأسيرة، كما جاء في أحد الأخبار: «**اتقوا الله في النساء؛ فإنَّهنَّ في أيديكم عوان**»[1]، فإذا كان هذا الحديث يوصي بالنساء فذلك مما يدل صراحة على أنَّ المرأة قد وقعت عوانا أي أسيرة في يد الرجل، وستقوم المنظومة الجندرية على تعزيز الخبر وشرحه وتقديمه، بل وإدخاله إلى المدونة الدينية، ليصبح جزءاً من الدين والسلوك والممارسة، فتقول: «لأنه عليه الصلاة والسلام جعل النساء عند أزواجهنَّ بمنزلة الأُسَراء، وذلك لأن المرأة تجري على أحكام الرجل في الصدود والورود، والوقوف والخفوف، فهي راسفة في أقياد حصره، وناشبة في حبائل نهيه وأمره، ومن هنا قيل: فلانة في حبائل فلان- إذا كان بعلها- للعلة المقدم ذكرها»[2]، ولا تكتفي إلى هذا الحد فحسب، بل تتعداه إلى ما يجهز على مجمل الوجود الأنثوي بإزاء الذكوري بكل ما أوتيت تلك المنظومة من بلاغات وسلطة في صناعة النص الديني: «إنما سميت المرأة المنقولة إلى زوجها: هدياً؛ لأنَّها بمنزلة الأسيرة عنده، وقيل: بل سميت بذلك لأنها تُهدى إلى زوجها، فهي فعيل في موضع مفعول، فهديّ في مكان مهدي، يقال: هديتُ المرأةَ إلى زوجها أُهديها هِداء. وهو من الهَدَاة»[3]، فتتعدد الأقوال أيَّهما يضع القيمة المناسبة للوضع الثقافي الراهن، فهي تهدى لأنَّها هدية للذكورة، وقيل إنَّها هداة من الهَدي؛ لأنَّها ستحصل على شرف الرجل وقوامته وقيمه وتنضوي تحت عرشه، فتكون مهدية ومُرشَدة ومهداة، بل لم تدون المنظومة الفقهية المجندرة أفظع من هذا الخبر: بإسناد نوادر الراوندي «**عن موسى بن جعفر، عن آبائه (ع)... وبهذا الإسناد قال: إنَّ فاطمة دخل عليها علي بن أبي طالب (ع) وبه كآبة شديدة فقالت فاطمة (ع): يا علي ما هذه الكآبة؟ فقال علي (ع) سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة ماهي؟ فقلنا عورة، فقال: فمتى تكون أدنى من ربها؟ فلم ندر فقالت فاطمة لعلي (ع): ارجع إليه فأعلمه أنَّ أدنى ما تكون من ربَّها أن تلزم قعر بيتها، فانطلق فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالت فاطمة (ع)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ فاطمة بضعة مني... وبهذا الإسناد قال: قال علي (ع) أقبلت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن لي زوجاً وله عليَّ غلظة وأني صنعت به شيئاً لأعطفه عليَّ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُفٌ لك كدرت دينك، لعنتك الملائكة الأخيار، لعنتك ملائكة السماء لعنتك ملائكة**

1 - الشريف الرضي، المجازات النبوية، سبق ذكره: 224-225

2 - المصدر نفسه: 225

3 - المصدر نفسه: 225

الأرض فصامت نهارها وقامت لياليها ولبست المسوح ثمَّ حلقت رأسها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ حلق الرأس لا يقبل منها إلا أن يرضى الزوج»[4].

إنَّ إركان المرأة وحبسها داخل صومعة العبادة داخل البيت هو ما تسعى المنظومة الجندرية إلى تحقيقه، وهو ما يعد عزلاً ممنهجاً لتهميش الوجود الإنساني للمرأة وإبعادها تماماً عن الساحة التي استفحلت وتشكلت ملامحها الفحولية بما لا يدع للمرأة بعد أيَّة فرصة سانحة للظهور والتشكل والنهوض، بل أجهزت تلك المنظومة على أي شكل من أشكال المقاومة، فإذا كانت المرأة في النص المذكور قد حاولت استعطاف زوجها الغليظ، فإنها ارتكبت من وجهة نظر المنظومة الجندرية أبشع أنواع الانتهاك، فهي لم تكدر دينها كما وصف النص، بل كدرت النظام الفحولي القائم، وهددت مركزيته؛ لأنه لا يجيز لها أن تتمظهر حتى على مستوى الاسترضاء والاستعطاف، ولا يبيح لها أن تعي شيئاً غير ذلك، يجب عليها أن ترضخ إلى حقيقة أنَّها عورة[5] ويجب حبسها في قعر البيت.

لقد فضحت نصوص المدونة الفقهية والتفسيرية جندرية الواقع الاجتماعي، بل والسياسة الدينية في خلق التراتبية الهرمية بين الذكورة والأُنوثة، فلا نجد نصّاً إلا والرجل فيه يمثل المركزية المطلقة، ويمثل محور الموضوع والتيمة الرئيسة؛ لأن هذه النصوص السردية لا تتشكل من فراغ مطلقاً، إنَّما عبر منظومة متكاملة لها الهيمنة والسلطة والنفوذ، وجواز العبور من جيل إلى آخر، ومن حقبة إلى أخرى، ومن مقدس إلى آخر، حتى تتسلل بكل ثقة، وتتجلى بكل ثبات داخل منظومة الأفكار والمعارف والمقدسات، لتتجلى بشكل مؤكد على مستوى الممارسة والفعل والعبادة والحياة.

وفي الوقت نفسه لا تكتفي تلك المنظومة بخلق نموذج واحد تضمن له وثيقة العبور والهيمنة، بل تتلون وتتشكل وتتجلى وتتمثل بمختلف أشكال التعبير والوصف والتقنين، فها هي مرة أخرى تعود لتضع أنساقها بتشكيل آخر للمرأة، يدعم ويعضد ما أسسته من جانب آخر، وبذلك تتكامل كل تلك النصوص بأنساقها لتشكل وحدة بنيوية كلّية تشكّل واقعاً اجتماعياً وثقافياً ودينياً مجندراً يبدو فيما يبدو أنَّه الحقيقة والمثال والدين والمقدس والواقع.

ففي أيَّ مراجعة لا نجد المرأة إلّا وهي اللعبة أو شيء من أشياء الرجل وممتلكاته، لتلتقي مع المقولات الأخرى التي تصب في الغاية نفسها التي تريدها منظومة الجندر، وهو أن تظل المرأة مأسورة بيد الرجل، وتتشكل وفق تصور الرجل، وتكون حسب ما يريد لها الرجل، والأهم من ذلك كله أن تؤمن هي وتقتنع أنَّها فعلاً كذلك.

---

4 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب4/ ح39، ح40، ح41: 352. ومثله: «جماعة عن ابي المفضل، عن جعفر بن محمد الحسني، عن موسى ابن عبد الله الحسني، عن جده موسى بن عبد الله، عن ابيه عبد الله بن الحسن وعمّيه إبراهيم والحسن ابني الحسن، عن امهم فاطمة بنت الحسين، عن ابيها، عن جدها علي بن ابي طالب (ع) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: النساء عيّ وعورات فداروا عيّهنَّ بالسكوت وعوراتهنَّ بالبيوت». المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب4/ ح48: 352

5 - وعن موسى بن جعفر، عن آبائه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما النساء عورة احبسوهنَّ في البيوت واستعينوا عليهنَّ بالعري». المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب4/ ح 43: 352

ومنها: «**عن مسعدة بن صدقة قال: حدثني جعفر بن محمد، عن أبيه عليه السلام قال: من اتخذ نعلا فليستجدها، ومن اتخذ ثوباً فليستنظفه، ومن اتخذ دابة فليستفرهها، ومن اتخذ امرأة فليكرمها، فإنما امرأة أحدكم لعبته فمن اتخذها فلا يضعها، ومن اتخذ شعرا فليحسن إليه، ومن اتخذ شعرا فلم يفرقه فرقة الله يوم القيامة بمنشار من النار**»»[6]، فالرجل هنا هو المالك وهو السيد وهو المخاطب وهو الإنسان وهو القيمة. أما المرأة، فقد جاء ذكرها من بين أشياء الرجل وممتلكاته التي يقضي بها حاجاته، مثل النعل والثوب والدابة، بل هي لعبة الرجل ومتاعه واستمتاعه فعليه أنْ يكرم تلك اللعبة ويحافظ عليها كما يحافظ أحدهم على نعله أو ثوبه أو دابته.

هذا إنْ كانت المرأة حرّة، فكل ما يذكر من مقولات في النساء والزوجات...إلخ هنَّ من الحرائر، أما الإماء أو الجواري فوضعهنَّ الاجتماعي والفقهي مختلف تماماً، فالعبد لا يزيد في زواجه عن امرأتين، وطلاق الأمة مرتين، وعدّتها شهرين أو حيضتين، وإذا كانت الحرّة زوجة للعبد فالطلاق والعدة بها، وإذا اشترى الحر جارية فوطأها ثم ظهر عيب، فله أن يأخذ أرش[7] العيب[8]، وإذا كانت المدونة الفقهية قد حرّمت العديد من القضايا المتعلقة بالمرأة، فإنَّها تسامحت بها مع الأمة، لأن الإماء خارج حدود التفكير والاهتمام ولا يشكل وجودهنَّ خطراً على الوضع الجندري؛ لأنهنَّ بالأساس خارج حدود المجتمع والقيمة، فتكون لهنَّ أحكامهنَّ المختلفة عن أحكام الحرّة، حتى فيما يتعلق بالجنس وممارسته، فإذا حرّمت المدونة الفقهية ممارسة الجنس بين يدي الحرة، فإنها أباحته أمام الإماء، لأن الأَمة ليست مما يخاف منه ويشكل خطراً أو تهديداً على الساحة الفحولية: «**المنذر بن محمد، عن سالم بن محمد، عن ابن أسباط، عن خلف بن سلمة، عن علّان بن محمد، عن ذريح، عن أبي عبد الله (ع) قال: قال الباقر (ع): لا تجامع الحرة بين يدي الحرة فأما الإماء بين يدي الإماء فلابأس**»[9]، هذه المقولة التي تفضح صراحة الجو الثقافي المشحون بالإماء والغلمان التي ملأت المجتمع العربي بعد القرن الأول للهجرة وانتشرت بشكل رهيب فيما بعد حتى ملأت القصور والنوادي والبيوت، فكانت ممارسة الجنس مع مجاميع من الإماء أمراً اعتيادياً أباحته لهم مدونة الفقه الجندرية، بل إنَّ تلك المنظومة جوّزت أن يكشف المشتري عن مفاتن الجارية التي يريد شراءها، على أنَّها سلعة لابد من تقليبها، فتسامحت المنظومة بالكشف عما لا يجوز الكشف عنه عامة «**عن أبي جعفر، عن الحارث، عن عمران الجعفري، عن أبي عبد الله (ع) قال: لا أحب للرجل أن يقلّب إلا جارية يريد شراءها**»[10]، ولاشك أنَّ ذلك ينسحب حتى على اللباس كما مرّ بنا

6 - أبو العباس الحميري، قرب الإسناد، سبق ذكره: ح223/ 69- 70. ومثله ما جاء بإسناده عن موسى بن جعفر، عن آبائه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما المرأة لعبة فمن اتخذها فليبضعها» المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب4/ ح42: 352

7 - أن يأخذ المشتري من البائع إذا اطلع على عيب في المبيع، يقال لِما يدفع بين السلامة والعيب في السلعة أرْش؛ لأنَّ المبتاع للثوب على أنه صحيح إذا وقف فيه على خرق أو عيب وقع بينه وبين البائع أرْش أي خصومة واختلاف، من قولك أرشت بين الرجلين إذا أغريت أحدهما بالآخر، وأوقعت بينهما الشر، فسمي ما نقصَ العيبُ الثوبَ أرْشاً إذا كان سبباً للأرش. ابن منظور، لسان العرب، سبق ذكره:ج6/ مادة أرش: 263- 264.

8 - أبو العباس الحميري، قرب الإسناد، سبق ذكره: ح48، ح49، ح52: 15- 16

9 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب5/ ح43: 380

10 - الحر العاملي وحسين النوري، وسائل الشيعة ومستدركها، مؤسسة النشر الإسلامي، قم- إيران، ط1، 1430هـ: ج16/ ب20/ ح1، ح2، ح3، ح4: 57. «عبد الله بن جعفر الحميري (في قرب الإسناد) عن الحسن بن ظريف، عن الحسين بن علوان، عن جعفر، عن أبيه، عن علي (ع) أنه كان إذا أراد أن يشتري الجارية يكشف عن ساقيها فينظر إليها».

في الحجاب والاستتار بين الحرّة والأَمة، ولكن هذه المرة نجد أنَّ اللباس مختلف أيضاً حتى في حدود الصلاة، فلباس الأَمة مختلف عن لباس الحرّة في الصلاة، فقد جاء في الخبر: «**عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر (ع) قال: سألته عن المرأة الحرة هل يصلح لها أنْ تصلّي في درع ومقنعة؟ قال: ‹لا يصلح لها إلا في ملحفة، إلا أن لا تجد بداً›، وسألته عن الأَمة هل يصلح لها أن تصلي في قميص واحد؟ قال: ‹لابأس›**»[11].

وبهذا تكون المنظومة الفقهية قد ميزت على أساس الفارق الجندري الطبقي بين الحرّة والأمة، حتى إنَّها كرّهت زواج الحر / السيد/ الفحل من الأَمة لما في ذلك من حط لقيمة الذكورة المتعالية التي لا تنسجم وطبقة الإماء، ولكن حينما يتعلق الأمر بالضرورة أن تصل إلى الزنا، فإنَّ المدونة الفقهية تتسامح فيه على كراهة: «**حدثنا هُشَيمٌ، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير في الحر يتزوج الأَمة قال: ما ازْلَحف عن الزنا إلا قليلاً لقوله تعالى: وأن تصبروا خيرٌ لكم) قال: يقول: عن نكاح الأَمة**»[12]، بل أصبح الأمر قائماً على أساس فقهي وديني بالتفريق على أساس طبقي جندري بين النساء والرجال، وبين الإماء والعبيد والحرائر والأحرار، حتى على مستوى الالتزام الديني في أحكام اللباس، ولأنَّ الحرّة قد مُيزت في وقت أسبق بوساطة الحجاب عن الأَمة التي حرصت المنظومة الفقهية على كشفها وتعريتها كما مرَّ بنا من خبر أنس بن مالك، وغيره من الأخبار وفي مثل هذا الخبر: «**حدثنا وكيع قال: حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس قال: رأى عمرُ أَمَةً لنا متقنعة فضربها، وقال لا تتشبهي بالحرائر**»[13]؛ لأنَّ الموضوع قد حسم لصالح الذكورة في عملية جندرة المجتمع وتقسيم الأدوار والطبقات والصفات، فلا يسمح بعد مطلقاً باختراق تلك المنظومة أو التهديد بتهشيمها.

كما أنَّ ذلك الأسّ الجندري الطبقي قد انسحب على الحكم الفقهي الشرعي، فجوز للأمة أن تصلي بقميص واحد الذي ربما لا يكفي لستر كامل الجسد فضلاً عن الرأس، وأحكم على الحرّة أن تلتحف في صلاتها: «**ولا يجوز للمرأة أن تصلي بغير خمار إلا أن تكون أمة فإنها تصلي بغير خمار مكشوفة الرأس**»[14]، ولا يحق للحرة أن تصلي إلا وهي مغطية كامل الرأس: «**حدثنا معتمرٌ، عن هشام، عن الحسن قال: إذا بلغت المرأة الحيض، ولم تغط أذنيها ورأسها لم تقبل لها صلاة**»[15].

وصفوة القول: إنْ لم نقل إنَّ المدونة الدينية قد أسهمت بشكل منقطع النظير بتأسيس الأنساق الجندرية ومنحها القدسية والدينامية والبقاء الأزلي داخل منظومة المقدس، فإنَّها قد تسامحت بشكل فاضح بتأطير النسق وتمريره، بل وتأسست مقولاتها الفقهية وفق النظام الاجتماعي الذكوري، وطوّعت أحكامها الدينية بما

---

11 - أبو العباس الحميري، قرب الإسناد، سبق ذكره: ح875، 224/876-225

12 - ابن أبي شيبة، المصنف، سبق ذكره: ج6: ب19/ ح16296: 31. ومثله: «حدثنا معتمر، عن أبي عبيدة، عن عمارة بن حيان أنَّ امرأة أتت جابر بن زيد فقالت: إنَّ رجلاً يخطب علىَّ أمتي، قال: لا تزوجيه قالت: فإنه يخشى على نفسه، قال: لا تزوجيه، قالت: فإنَّه يخشى أن يزني بها قال: فزوجيه». المصدر نفسه: ح16301

13 - المصدر نفسه: ج3/ ب53/ ح6296: 114

14 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب5/ ح1: 355

15 - ابن أبي شيبة، المصنف، سبق ذكره: ج3/ ب52/ ح6285: 113. ومثله ما جاء في باب 52

ينسجم مع الرغبة الذكورية والواقع الثقافي الذكوري، ولم تسهم إلّا بالدعوة إلى الرفق والاعتناء والمسامحة، بل بفرض الوصاية الذكورية على المرأة؛ وذلك في سبيل تطويعها وإخضاعها للقوى الذكورية بوساطة المقدس؛ ففي أغلب الأخبار نجد عبارة (رفقا بالنساء) (أوصيكم بالنساء) وغيرها من الوصايا[16]، وهو أبلغ ما يمكن أن تطرحه منظومة الفقه، ولكن ضمن البنية الفكرية داخل النص نجد الاعتراف الحقيقي بالقيمة الجندرية المضمنة لصالح الذكورة، وهذا ما يجعل المدونة الدينية تسهم إسهاماً سلبياً يصب في خدمة المنظومة الجندرية وفق مستويين؛ الأول: إنَّها تسامحت واعترفت بوجود النظام الجندري وأبقته على حاله، وثانياً: إنَّها في دعوى الرجال أن يستوصوا بالنساء قد أكْسَبت النسق قيمة دينية خارج عنه ولا يستحقها؛ لأنه ليس من ضمن المنظومة الدينية، **وبهذا تكون مدونة الفقهاء والمفسرين قد أسهمت بشكل فاعل في تعميق النظام الجندري وتأسيسه ومنحه الدينامية الفاعلة في عمق المجتمع وتأطيره.**

2-5- أكثر أهل النار من النساء:

ورد في الخبر: «**حدَّثنا عبد الله بن يوسف: أخبرنا مالك، عن زيد بن أسلم الفقيه العمري عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عباس: أنه قال: خسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه فقام قياماً طويلاً نحواً من سورة البقرة ثم ركع ركوعاً طويلاً، ثم رفع فقام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم رفع ثم سجد، ثم قام فقام قياماً طويلاً دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم رفع فقام قياماً طويلاً دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم رفع ثم سجد، ثم انصرف وقد تجلت الشمس فقال: ‹إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته. فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله› قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت. فقال: ‹إني رأيت الجنة -أو رأيت الجنة- فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا. ورأيت النار فلم أرَ كاليوم منظراً قط، ورأيت أكثر أهلها النساء. ‹قالوا: لمَ يا رسول الله؟ قال: ‹بكفرهنَّ›. قيل: ‹ يكفرنَّ بالله؟ قال: يكفرنَ العشير، ويكفرنَ الإحسان. لو أحسنت إلى إحداهنَّ الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط›»**[17].

16 - عن جعفر عن أبيه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اتقوا الله في الضعيفين: اليتيم والمرأة، فإنَّ خياركم خياركم لأهله»». أبو العباس الحميري، قرب الإسناد، سبق ذكره: ح306/ 92

17 - البخاري، صحيح البخاري: كتاب النكاح، سبق ذكره/ ب89/ ح 5197: 1129. ومثله: «حدثنا مسدد: حدثنا إسماعيل: أخبرنا التيمي، عن أبي عثمان، عن أسامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ‹قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون، غير أنَّ أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء». المصدر نفسه: (ح5196). ومثله: «حدثنا عثمان بن الهيثم: حدثنا عوف، عن أبي رجاء، عن عمران عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ‹اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء. واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»». المصدر نفسه: (ح5198). و: الترمذي، الجامع الكبير، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1996: ج4/ ب11/ ح2603: 348. و: الكليني، الكافي- الفروع، سبق ذكره: ج5/ب345/ ح3/ 310-311

2-6- كمال الرجل والمرأة النقص:

سعتْ المنظومة الجندرية للعمل على رفع قيمة الذكورة وخفض قيمة الأنوثة للمستوى الذي تتشكل فيه القاعدة الثقافية العامة، حتى تغدو المعادلة مفهومة لدى المجتمع العربي الإسلامي بصورة بديهية؛ فالفرد في المجتمع لا يجد غير تلك القناعات والمسلّمات القارة في وعي الجماعة، وهو يتلقاها بداهة منذ الطفولة وحتى الكهولة في مختلف مناحي الحياة، فإذا كان الدين أو الأخبار الفقهية الموروثة هي السردية المهيمنة على جميع تشكلاته المعرفية والثقافية والعبادية والسلوكية، فإنَّ تلك السرديات مشبعة بالنظم الجندرية المتجذرة التي لا يجد معها الفرد أية غرابة أو صعوبة أو حتى مشكلة.

فالنص الموروث دائماً ما تدس فيه المنظومة الجندرية العديد من المقولات الاختلافية التي ترفع الذكورة على حساب الأنوثة، ولا تدع مجالاً إلا استغلته، ولا ذريعة مناسبة إلا اتخذتها، ففي خبر جاء «**بإسناد العلوي، عن أمير المؤمنين (ع) أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سُئل كيف صارت الأشجار بعضها مع أحمال وبعضها بغير أحمال؟ فقال: كلّما سبح آدم تسبيحة صارت له في الدنيا شجرة مع حمل، وكلما سبحت حواء تسبيحة صارت في الدنيا شجرة من غير حمل. وسُئل مما خلق الشعير؟ فقال: إنَّ الله تبارك وتعالى أمر آدم (ع) أن ازرع مما اخترت لنفسك، وجاءه جبرئيل بقبضة من الحنطة، فقبض آدم على قبضة وقبضت حواء على أخرى، فقال آدم لحواء: لا تزرعي أنت، فلم تقبل أمر آدم فكل ما زرع آدم جاء حنطة، وكل ما زرعت حواء جاء شعيراً**»[18].

تسبيحة آدم هي تسبيحة ذكورية، والإله أيضاً ذكوري، في العقل الجندري، فتكون تسبيحة آدم/ عبادته / أدعيته تامة بتمام تكوين الذكورة، أما تسبيحة حواء في تسبيحة ناقصة؛ لأنها تسبيحة أنثوية، والأنوثة تفارق التكوين الإلهي الذكوري، والعقلية الذكورية، فلا بد من أن تكون ناقصة عن الذكر/ آدم/ الرجل.

ويضاف إلى ذلك النقص هو عدم الامتثال، فالراجح في الثقافة الجندرية أنَّ الذكر هو القوّام وهو السيد وهو الآمر الناهي، وحينما لم تمتثل حواء لأمر آدم، فإنَّ الإله الذكوري مسخ زرعها من الحنطة إلى الشعير، وبهذا تكون المنظومة الجندرية قد أحرزت تقدماً في هذا النص على مستويين، الأول: إنَّها أسست لفكرة الاختلاف، ثانياً صنعت العقل الجندري المفارق للتوازن الطبيعي بين الذكورة والأنوثة من خلال رفع قيمة الذكورة بالنسبة إلى الأنوثة، وأثبتت بالدليل الميتافيزيقي المتناسب مع العقلية الجماعية أنَّ المرأة ناقصة وعاصية في الوقت نفسه.

---

18 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج11/ ب 1/ ح28، ح29: 79. و: الصدوق، علل الشرائع، سبق ذكره: ب376/ ح2: 560. ومما يدل على اختراق المنظومة الجندرية للمدونة الخبرية أنَّه جاء الخبر: «أبي رحمه الله- حدثنا سعد بن عبد الله عن القاسم بن محمد الأصبهاني عن سليمان بن داود المنقري عن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله (ع) قال: لم يخلق الله (عزوجل) شجرة إلا ولها ثمرة تؤكل، فلما قال الناس اتخذ الله ولداً أذهب نصف ثمرها، فلما اتخذوا مع الله إلهاً شاك الشجر». وهذا الخبر يتعارض ويتناقض مع الخبر الأول الوارد أيضا عن علي بن أبي طالب. المصدر نفسه: ب 374/ح1: 559

وبطبيعة الحال، فإنَّ المنظومة الجندرية لا تدع الأمر يبدو مقحماً، بل تسهم في خلق مجموعة تعالقات مع أخبار أخرى، وموضوعات موازية، وتفاسير لآيات قرآنية، وأخبار عن النبي أو الصحابة والتابعين.

فلو راجعنا تلك المدونة الإسلامية، لوجدنا أنَّ ذلك التصور العبراني القديم عن الإله الذكوري قد وجد له موقعاً داخل المدونة الإسلامية، فقد جاء في خبر «**فلما أكل آدم من الشجرة اهبط إلى الأرض فولد له هابيل وأخته توأم، وولد له قابيل وأخته توأم، ثم إنَّ آدم أمر هابيل وقابيل أن يقربا قرباناً، وكان هابيل صاحب غنم، وكان قابيل صاحب زرع، فقرب هابيل كبشاً وقرب قابيل من زرعه ما لم ينق، وكان كبش هابيل من أفضل غنمه وكان زرع قابيل غير منقى، فتقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل وهو قوله تعالى (عزوجل):** {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} **[المَائدة: 27]**، وكان القربان إذا قبل تأكله النار، فعمد قابيل فبنى لها بيتاً، وكان أول من بنى للنار بيوت، وقال لأعبدن هذه النار حتى تقبل قرباني»[19].

وهذا الخبر يعيد إلى الذهن ما ذكرته التوراة عن الإله الذكوري الذي يستجيب ويفرح برائحة الشواء والنار التي تأكل القرابين، ولهذا كان هابيل في العقلية العبرانية راعي غنم ولهذا تُقبل قربانه، وقابيل كان مزارعاً فلم يتقبل الإله الراعي ذلك القربان الزراعي الذي لا نار ولا احتراق ولادم ولا لحوم فيه. ولهذا جاء في الخبر الإسلامي أن هابيل قدم كبشاً، وجاء التركيز على الأفضلية في أنَّ قابيل قدَّم زرعاً لم ينضج، فما علاقة النار بالزروع التي لم تنضج حتى ذهب لعبادتها قابيل بعد أن قتل أخاه؟

وفيما يبدو أنَّ المدونة الفقهية أو التفسيرية ترتكز على أولويات بالنسبة إلى مؤلفيها وللجماعة التي ينتمي إليها المؤلف أو السارد لتلك الأخبار، وهو في تركيزه على القضايا المهمة السياسية أو المذهبية أو الطائفية أو غيرها تفوته العديد من القضايا الأخرى، وتمر الأنساق الجندرية بوصفها واحدة من أنساق عديدة بلا شك دون علم أو دراية أو حتى أدنى انتباه من المدوّن أو السارد أو الراوي للأخبار الدينية، فتتشكل تلك السرديات بعيداً عن أعين الفاحصين بدقة وفطنة ووعي.

بهذه العقلية البدوية تمت صناعة السرد الديني، وجندرة كافة مقولاتها القدسية، وبذلك اكتسب الرجل قيمه الفحولية العليا، وأُنزلت المرأة مرتبتها الدونية المبتذلة، حتى أصبح كما في هذا النص السردي: «**قال المفضل: سألت مولاي الصادق عن الكافر والكافرة؟ فقال: نعم يُرَدّ الكافر في صورة الامرأة الكافرة، ولاترد الامرأة الكافرة في صورة الرجل الكافر. يا مفضل، اسمع وافهم. إنَّ المؤمنين والمؤمنات يرتقون إلى أعلى من ذلك. كذلك الكافرون ينحطون من درجة الرجال حتى يصيروا عامة نساء كافرات. قال المفضل: يا مولاي، رُوي عن أبيك الباقر أنه قال: النساء أشر من الرجال، وأكثر احتيالاً ومكراً. قال الصادق: يا مفضل، إنَّ أصل كل شر النساء وحين خرج أبونا آدم من الجنة كان بسبب حواء حين أغواها ضده إبليس. وكذلك قتل قابيل**

19 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج 11/ ب 1/ ح49/ 33. وب5: 152

أخاه هابيل بسبب النساء، ألم تسمع كلام الله في كتابه الكريم عن امرأة نوح ولوط وكيف خانتاهما. وكذلك قتل يحيى بن زكريا بسبب امرأة باغية. وقد قال النبي وأبلغ في القول، وأزجر في المعنى حين نظر في النار فرأى أكثر أهلها نساء، ثم قال الصادق: كيف لا يكون ذلك وهنَّ أبغى وأقوى كيداً من الرجال. وقال تعالى: ‹إنَّ كيدكن عظيم› وقال عليه السلام: والشياطين من المرأة. وأنَّ الإنسان إذا ارتقى في كفره وعتوه وتردى وتناهى في ذلك صار إبليساً، وردّ في صورة امرأة. قال المفضل: سبحان الله، يا مولاي، ما علمت ذلك ولا ظننت أنه يؤلمني ويبكيني. قال الصادق: ألم تقرأ في القرآن قوله تعالى: {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً}. وقال في النساء: إنَّ كيدهنَّ عظيم؛ إذ إنَّ الرجال الضالين المضلين هم صور النساء الشياطين. قال المفضل: صدق مولاي عليه السلام، ثم قال، يا مفضل: هذه تراكيب الكافر في صورة الكافرة. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»[20].

لا يخرج هذا النص عن القيم الاجتماعية التي أسستها القوى الذكورية بتحطيم قيمة المرأة وتسفيلها، فهو يَنْبَني وفق معطيات نسقية هيمنت على عقلية المتلقي (المفضل) أو غيره، معتمداً الأسلوب الإقناعي، فمقولة الكيد النسوي تستند إلى تأويلية قرآنية جاءت في حدود وصف العمل الذي قامت به أولئك النسوة، إلا أنه تحول بفعل القوى الفحولية إلى إطلاق عام لرهن الكيد بالمرأة وجعل كيدهنَّ عظيماً خارج الأطر المحدودة التي جاء بها النص القرآني، وإذا كان الله تعالى قد تحدى عمل إبليس بوصفه عملاً ضعيفاً لا يقوى به على ثني القدرة الإلهية، فإنَّه أصبح وصفاً مطلقاً يجعل من كيده وهناً ضعيفاً لا يرقى إلى كيد النساء، بل إنَّ إبليس يتجلى في صور النساء، وإذا ما تسافل الرجل أصبح امرأة، ولكن المرأة مهما بلغت من كمال أو تسافلت فإنَّها لا تبلغ قيم الذكورة مطلقاً.

2-7- لعبة الرجل والمتع الجنسانية:

ما يمكن أن تهادن عليه المنظومة الجندرية وتتقبله، بل وتسعى لتطبيعه هو أن تجعل من المرأة قيمة الأنس واللذة والمتعة الجنسانية؛ لأن ذلك لا يشكل تهديداً للذكورة، بل يعزز قيمها، كون الرجل يظل سيداً يتمتع بتلك اللعب المخلوقة أساساً من أجله، لأنسه ومتعته، فقد جاء في خبر: «**أبي، عن سعد، عن البرقي، عن أبيه، عن محمد بن سنان، عن إسماعيل بن جابر وعبد الكريم بن عمرو، عن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن أبي عبد الله (ع) في حديث طويل قال: سمّي النساء نساء لأنه لم يكن لآدم أنس غير حواء**»[21]، وفي خبر آخر أنَّ الله تعالى لما خلق آدم «**ألقى عليه السبات، ثم ابتدع له خلقاً، ثم جعلها في موضع النقرة التي بين وركيه، وذلك لكي تكون المرأة تبعاً للرجل (...) فقال الله: هذه أمتي حواء أ فتحب أن تكون معك فتؤنسك وتحدثك**

20 - المفضل الجعفي، كتاب الهفت والأظلة- عن الإمام جعفر بن محمد الصادق، تحقيق: عارف تامر، دار ومكتبة الهلال، بيروت- لبنان،1981: 149 -150

21 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج11/ ب1/ ح20: 77. ومثله: الصدوق، علل الشرائع، سبق ذكره : ج1/ ب16/ ح1: 24

وتأتمر لأمرك؟ قال: نعم يا رب، ولك بذلك الحمد والشكر ما بقيت، فقال الله تبارك وتعالى: فاخطبها إليَّ فإنها أَمتي وقد تصلح أيضاً للشهوة، وألقى الله عليه الشهوة»[22].

ولكن هذه الشهوة والجنسانية ستلتصق بحواء/ الأنثى دون الذكر/ آدم؛ لأنها لا تتناسب والترفع الذكوري فتكون همة المرأة متعلقة بالرجل «إنَّ الله تعالى خلق آدم من الماء والطين، فهمة ابن آدم في الماء والطين وخلق حواء من آدم، فهمة النساء في الرجال فحصنوهنَّ في البيوت»[23]؛ لأنها في الأصل خلقت من ضلع الرجل/ آدم/ الذكر، فتكون كل همتها واهتمامها للرجل/ الذكر، وتكون تابعة ومنقادة للأصل الذي انفصلت عنه «**عن محمد بن عيسى العلوي عن أبيه، عن جده، عن أمير المؤمنين (ع) قال: خلقت حواء من قصيرا جنب آدم -والقصيرا هو الضلع الأصغر- وأبدل الله مكانه لحماً**»[24]، وهذا ما يشرعن بالنتيجة حبس المرأة والخوف من ميلها تجاه الرجال ونشر الفساد والرذيلة، فستكون توصية «فحصنوهنَّ في البيوت»[25]، متناغمة مع هذه الصورة التي تشكلت عبر ثقافات عابرة للأجيال والأديان والأزمان، ومقنعة في الوقت نفسه.

لقد أصبحت تلك الحكاية الموروثة عن آدم وحواء وهبوطهما من الجنة، المتن الذي يمكن إعادة روايته بمختلف أشكال المباني الحكائية، وربما يصل في بعض الأحيان إلى أن يُحمَّل أيديولوجية ما، أو يتم تأطيره بالشكل الذي يخدم أهداف اتجاهات معينة وغاياتها، فنحن إزاء متن حكائي موروث نجده في كل مرة على شاكلة جديدة، وفي كل زمان ومكان، وبمختلف الصياغات الفنية؛ لأنه قابل للتمطيط والتنميط والتشكيل، مادام نصاً موروثاً لم يقف أحد ما على صياغاته النهائية، وغير خاضع للتحقيق والتشكيك، ولم يرد في القصة القرآنية بكامل تفاصيله المضبوطة، فأصبح نصاً قابلاً لمختلف أنواع التشكلات، مستسيغا للزيادات والإضافات الجديدة.

فليس من الغريب أن نجد هذا المتن الموروث قد تشكل من جديد ليقدم لنا على شكل خبر سردي يحمل بين طياته بعداً أيديولوجيا ينسحب إلى اعتقاد السارد أو اتجاهه العقائدي أو السياسي أو المذهبي، فنجد على سبيل المثال أنَّ آدم «لما أكرمه الله تعالى ذكره بإسجاد الملائكة له وبإدخاله الجنة قال في نفسه: هل خلق الله بشراً أفضل مني؟ فعلم الله (عز وجل) ما وقع في نفسه، فناداه: ارفع رأسك يا آدم فانظر إلى ساق عرشي، فرفع آدم رأسه فنظر إلى ساق العرش فوجد عليه مكتوباً: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي بن أبي طالب

---

22 - الصدوق، علل الشرائع، سبق ذكره: ج1/ ب17/ ح1: 25

23 - الكليني، الكافي- الفروع، سبق ذكره : ج5/ ب 210/ ح4. و: المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج11/ ب1/ ح35: 80

24 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج11/ ب1/ ح43: 82. ومثله: «حدثنا أبو بكر قال: حدثنا هودة بن خليفة قال: حدثنا عوف، عن رجل قال: سمعت سمرة بن جندب يخطب على منبر البصرة يقول: سمعت رسول الله يقول: ‹إنَّ المرأة خلقت من ضلع وإنك إن ترد إقامة الضلع تكسره فدارها تعش بها». ابن أبي شيبة، المصنف، سبق ذكره: ج6/ ب276/ ح19602: 585. ومثله: «حدثنا عبد الملك بن عبد الرحمن الذماري، أخبرنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج عن ابي هريرة أنَّ النبي قال: ‹إنَّ النساء خُلِقَنَّ من ضلع، لا يستقمنَّ على خليقة، إن تقمها تكسرها، وإن تتركها تستمتع بها وفيها عوج›». أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، سبق ذكره: ج16/ ح10448: 276- 277

25 - ومثله: «عدة من أصحابنا، عن أحمد بن أبي عبد الله، عن أبيه، عن وهب، عن أبي عبد الله (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع): خلق الرجال من الأرض، وإنما همهم في الأرض وخلقت المرأة من الرجال، وإنما همها في الرجال، احبسوا نساءكم يا معاشر الرجال». الكليني، الكافي- الفروع، سبق ذكره: ج5/ ب210/ ح6. ومثله أيضا: المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج11/ ب1/ ح45: 82. «عن أبي علي الواسطي قال: قال أبو عبد الله (ع): إنَّ الله خلق آدم من الماء والطين، فهمة آدم الماء والطين، وأنَّ الله خلق حواء من آدم فهمة النساء في الرجال، فحصنوهنَّ في البيوت».

أمير المؤمنين، وزوجته فاطمة سيدة نساء العالمين، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، فقال آدم (عليه السلام): يا رب من هؤلاء؟ فقال (عز وجل): من ذريتك وهم خير منك ومن جميع خلقي، ولولاهم ما خلقتك ولا خلقت الجنة والنار ولا السماء والأرض، فإياك أن تنظر إليهم بعين الحسد فأخرجك عن جواري. فنظر إليهم بعين الحسد وتمنى منزلتهم فتسلط الشيطان عليه حتى أكل من الشجرة التي نهى الله عنها، وتسلط على حواء لنظرها إلى فاطمة (عليها السلام) بعين الحسد»[26].

إنَّ الارتكاز على البعد الأيديولوجي لفئة ما تؤدي بالنتيجة لاهتمام تلك الفئة بما يخدم أفكارها وعقيدتها وطريقة إثبات أحقية تلك الأهداف الأيديولوجية، أو ما تحاول فرضه من خلال سلطة النص التفسيري إلى ما يصب بصالحها السياسي[27]، وهذا ما يؤدي بالضرورة إلى تسلل العديد من الأنساق من بين تلك المقولات الإخبارية المؤسسة للعقلية الفئوية أو المذهبية؛ لأنَّ تلك المجموعة تركّز دائماً على غاياتها الأساس وتتغاضى عما سواها، وربما لا تستشعر وجود غيرها داخل منظومتها الفكرية، وبذلك تمرّ الأنساق وتدخل مقولاتها، وتؤسس نفسها داخل هذه المدونة، حتى تغدو جزءاً لا يتجزأ من الدين أو المعتقد أو المذهب نفسه، وبمرور الزمن تتلاشى كافة الملامح المؤثرة في دس كل تلك الأنساق، وتتساوى المقولات الرئيسة مع الهامشية والمتسللة، وتصبح كلاً واحداً في منظومة عقدية دينية مذهبية متكاملة يصبح لها مستقبلاً الأثر الفاعل في تأسيس ثقافة ممتدة لأجيال وحقب متقادمة، بل وتؤسس المذاهب والمعتقدات وحتى الممارسات والسلوكيات التي تؤمن بها وتمارسها فعلياً.

ومن تلك الأنساق التي مرت دون أنْ تثير انتباه الخاصة والعامة؛ أنَّ المنظومة الجندرية صنعت العديد من الأخبار التي انعقدت رموزها بالحكايات الموروثة من أزمان غابرة واستمرت وأخذت ديمومتها من القوى الجندرية المهيمنة، فهي تراهن على ما علق في الذهن من بقايا تلك الحكايات والتفسيرات والأخبار السابقة، فحينما تقدم له خبراً مجندراً يعتمد الرمز الإشاري المحيل على حكاية، أو إيمان راسخ فإنَّ ذلك النسق سيحقق النجاعة داخل الوعي الجماعي للمجتمع، وسيكتسب شروط القناعة وحدود المقدس، ومن ذلك ما ارتبط بحكاية الخلق والتكوين وقصة خلق المرأة / حواء من ضلع من أضلاع آدم/ الرجل؛ إذ نجد أنَّ هذه الحكاية ظلت خالدة على مرّ الدهور، فاستغلتها المنظومة الجندرية وأعادت إنتاجها مرات عديدة وبتشكلات نصية

---

26 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج11/ ب3/ ح9: 116- 117. ومثله: ح19

27 - ينقل عبد الرزاق في تفسيره: «حدثنا عبد الرزاق قال: أرنا معمر، عم الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال الذي تولى كبره منهم علي بن أبي طالب قلت: حدثني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كلهم سمعوا عائشة تقول: الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أُبي قال: فقال لي: وما كان حديثه قال: قلت: أخبرني شيخان من قومك أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبو سلمة بن عبد الرحمن، عن عائشة قالت: كان مسيئاً في أمري». الصنعاني، تفسير عبد الرزاق، سبق ذكره: ج2: 427- 428. والبعد السياسي الأيديولوجي واضح في محاولة تأويل النص القرآني في قوله تعالى في سورة النور: {إِنَّ الَّذِينَ جاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلّ امْرِئ مِنْهُمْ ما اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ}، وهذا يفضح سلطة القوى السياسية في توجيه النص القرآني ومراجعه التفسيرية باتجاه ما، يعزز موقفها السياسي الأيديولوجي، في الوقت الذي كان فيه المتحدث على علم تام أنَّ عائشة ذكرت اسم المقصود بالإفك، إلا أنه حاول تمرير ما يخدم هدفه السياسي، وهو ما نجد عليه كل المفسرين كما في صحيح البخاري «حدثنا أبو النعيم: حدثنا سفيان، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها (والذي تولى كبره) قالت: عبد الله بن ابي سلول». البخاري، صحيح البخاري: كتاب التفسير، سبق ذكره: ب5/ ح 4749: 1004. و: كتاب الشهادات: ب15/ح2661: 530. وفيه تفصيل كامل عن قصة الإفك.

مختلفة، فقد جاء في أحد أخبار المدونة ما يذكر: «**روى الحسن بن علي العبيدي، عن سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة قال: بينما شريح في مجلس القضاء إذ أتى له شخص فقال له: يا أبا أمية أخلني فإنَّ لي حاجة قال: فأمر من حوله أن يخفّوا عنه فانصرفوا وبقي خاصة من حضر فقال له: اذكر حاجتك فقال: يا أبا أمية أن لي ما للرجل وما للنساء، فما الحكم عندك فيَّ أرجل أنا أم امرأة؟ فقال له: قد سمعت من أمير المؤمنين (ع) قضية أنا أذكرها: خبرني عن البول من أي الفرجين يخرج قال الشخص: من كليهما، قال: فمن أيهما ينقطع؟ قال: منهما معا، فتعجب شريح قال الشخص: سأورد عليك من أمري ما هو أعجب، قال شريح: ما ذاك ؟ قال: زوّجني أبي على أنني امرأة فحملت من الزوج وابتعت جارية تخدمني فأفضيت إليها فحملت مني، فضرب شريح إحدى يديه على الأخرى متعجبا وقال: هذا أمر لابد من إنهائه إلى أمير المؤمنين فلا علم لي بالحكم فيه، فقام وتبعه الشخص ومن حضر معه حتى دخل على أمير المؤمنين (ع) فقص عليه القصة، فدعا أمير المؤمنين (ع) بالشخص فسأله عما حكاه له شريح وقال له: من زوجك؟ قال: فلان بن فلان وهو حاضر بالمصر، فدعا به وسأله عما قال، فقال: صدق، فقال أمير المؤمنين (ع): لأنت أجرأ من صائد الأسد حتى تقدم على هذه الحالة، ثم دعا قنبراً مولاه فقال: أدخل هذا الشخص بيتاً ومعه أربع نسوة من العدول ومرهنَّ بتجريده وعدّ أضلاعه بعد الاستيثاق من ستر فرجه، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين ما آمن على هذا الشخص الرجال والنساء، فأمر أن يشدّ عليه تبّان وأخلاه في بيت ثم ولجه وعدّ أضلاعه وكانت من الجانب الأيسر سبعة ومن الجانب الأيمن ثمانية**[28] **فقال: هذا رجل وأمر بطمّ شعره وألبسه القلنسوة والنعلين والرّداء وفرّق بينه وبين الزوج**»[29].

يمثل هذا النص الأنموذج الحقيقي للمدونة الفقهية التي تحمل أيديولوجيا سياسية معينة، فهي في مقام هذه الدعوة من التعريف بها وثبات أحقيتها ونشر أفكارها، تظل مأسورة لهذا الجانب ويفوتها العديد من القضايا الأخرى ومن بينها تلك الأنساق التي تمر دون رقيب أو إثارة انتباه، فتصنع تلك المدونة نسقاً جندرياً يثبّت أسسه داخل مدونتها الفقهية ويظل لصيقاً بالأيديولوجيا نفسها، والبعد الفكري نفسه، والنص والمقدس والدين.

ولمّا كانت المرأة هي لعبة التفريغ والشهوة والجنسانية، فإنَّ المدونة الفقهية المجندرة أباحت للرجل أن ينظر بحرية مطلقة إلى جسد المرأة؛ لأنها السلعة الجنسية التي يريد شراءها، فإذا كانت الآية القرآنية قد حرمت إبداء الزينة للرجل، فإنَّ السلطة الفقهية أباحت للرجل أن ينظر إلى المرأة بدعوى الزوج أو تحت غطاء الزواج، ولأنَّ المرأة لا شيء سوى لعبة جنسية يبتاعها الرجل لشهوته؛ فإنَّ الأحكام الفقهية ستصب فيما يريده

---

28 - لم تذكر مدوناتهم القديمة التي تناولت ما ذكره الحكماء والأطباء في تشريح البدن وأعضائه بنقص عدد أضلاع الرجال عن النساء، ولا أشارت للفرق بين الذكور والإناث، بل لم تذكر العدد المذكور في النص، ومن الجدير بالذكر أنَّ المصدر نفسه الذي ذكر الخبر أعلاه ينقل ما ذكره الحكماء والأطباء في تشريح البدن والأضلاع نذكر منها «وأما الأضلاع: فهي أربعة وعشرون عظماً، من كل جانب اثنا عشر، كلها محدبة، أطولها أوسطها. سبع منها يتصل أحد طرفيها من خلف بفقار الظهر بزوائد منها ونقرات من الفقرات وارتباط برباطات وحدوث مفاصل مضاعفة، ومن قدّام بعظام القص برؤوس غضروفية، وتسمى أضلاع الصدر لاتصالها بالقص واشتمالها على أحشاء الصدر. وخمس منها يقطع دون الاتصال بالقص متقاصرة ورؤوسها متصلة بغضاريف وتسمى ضلوع الخلف. وإنما خلقت لتكون وقاية لما يحيط به من آلات التنفس وأعالي آلات الغذاء... إلخ» المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج 59/ ب49: 21

29 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج101/ ب8/ ح1: 242. و: ح2. وح6، ح13

الرجل ووفق مبتغاه ورغبته، فلم تتحدث عن أي جانب آخر سوى أنَّها أباحت له النظر إلى جسد المرأة التي يريد شراءها أو الزواج منها: «**عن سعد، عن ابن عيسى، عن البيزنطي، عن يونس بن يعقوب، قال: قلت لأبي عبد الله (ع): الرجل يريد أن يتزوج المرأة يجوز له أن ينظر إليها؟ قال: نعم، وترقق له الثياب، لأنه يريد أن يشتريها بأغلى الثمن**»[30]، وفي خبر آخر «**بإسناده عن موسى بن جعفر، عن آبائه (ع) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذا أراد أحدكم أن يتزوج فلا بأس أن يولج بصره فإنما هو مشتر**»[31] وفي رواية أخرى: «**فلا بأس أن ينظر إلى ما يدعوه منها**»[32]. وما الذي يدعوه منها إنْ كانت المدونة الفقهية تلح على النكاح، والمتعة، والشهوة، والجسد المرغوب في المرأة؟

تؤسس هذه المقولات لقضايا عديدة منها أنَّ المرأة بالنسبة إلى الرجل ليست سوى جسد لابد من فحصه قبل الزواج منه، وإذا كانت مادة التحريم ترتكز على آيات قرآنية، فإنَّ السياسة الفقهية تتسامح تحت غطاء التزويج بأن يلج البصر إلى ما خلف الثياب؛ لأنَّها ستكون سلعة مشتراة مقابل ثمن محدد، وربما يكون ثمناً غالياً، فيكون أساس التزويج أو الثقافة السائدة في المجتمع؛ أن الرجل سيشتري بماله أي امرأة يرغب في جسدها أو يشتهي جسدها؛ لأنَّه اختبره واستباحه تحت غطاء الفقه والتشريع.

وبهذا تكون المدونة الفقهية قد أقرّت بالنظام الأبوي في تأسيس أنظمة الزواج والتعددية، بما يتناسب والأنظمة الاجتماعية والثقافية الموجودة فعلاً في الجزيرة العربية على أقل تقدير، إذ إنَّ كل أنماط الزواج التي كانت شائعة في عصر ما قبل الإسلام المتأخر كانت على وفق البناء الذكوري الأبوي، بعد أن أحكم نظام الانتساب إلى خط الأب سلطته على المجتمع منذ قرون، والذي فعله الفقهاء والمفسرون أنَّهم لم يخرجوا اطلاقاً عن هذا النظام السائد ولم يكسروا قواعد النظام الاجتماعي العربي المهيمن، وإنَّما أقرَّ بهذا النظام الذكوري وأنماط الزواج إلا البعض منها ما يدخل في دائرة التحريم الإسلامي، وبهذا يكون الإسلام قد أكسب الرجل حق السيادة في أنظمة الزواج التي تبيح له التعددية بين الحرائر والإماء، وحق جنسانية المرأة وكل ما هو متعلق بها، وحق الأبوة الذي زاد من قيمة الرجل وسلطته الذكورية، وهكذا حتى تم الاعتراف بالعادات الموائمة للهيمنة الذكورية، وتحريم كل العادات المنافية لها، وتمت إعادة صياغة كافة العلاقات الجنسانية وأنماط الزواج من خلال تأسيس قواعد فقهية تستند في قوانينها إلى مقولات قدسية ونصوص قرآنية خاضعة لسلطة التفسير الجندرية، حتى تأسست جميع القوانين المنظمة لعلاقة الرجل بالمرأة ضمن حدود الذكورية والثقافة الأبوية السائدة التي فرضت في آخر المطاف جميع القيود الصارمة[33] على المرأة تحت غطاء شرعي فقهي ديني مقدس.

---

30 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج101/ ب35/ ح2: 33

31 - المصدر نفسه: ج101/ ب35/ ح3: 33

32 - المصدر نفسه: ج101/ ب35/ ح4: 33. ومثله: «وقال جعفر الصادق (ع) : ذكر هذا الخبر لجابر بن عبد الله، فقال جابر: لمّا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا اختبأت لجارية من الأنصار في حائط لأبيها فنظرت إلى ما أردت وإلى مالم أُرد فتزوجتها فكانت خير امرأة»، ومثله «هارون عن مسعدة بن اليسع، عن أبي عبد الله، عن آبائه (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع) : لا بأس بأن ينظر الرجل إلى محاسن المرأة قبل أن يتزوجها إنما هو مستام فإن يُقْضَ أمرٌ يكن».

33 - ليلى أحمد، المرأة والجنوسة في الإسلام، سبق ذكره: 49- 50

2-8- قلق العذرية

تشكّل البكارة موضوعاً بالغ الأهمية في الثقافة العربية الإسلامية، كونها علامة العفة التي يجب أن تتصف بها المرأة المطلوبة للزواج، وفي الحقيقة لا نجد أنَّ موضوع البكارة، والقلق الذي يعيش تبعاته كلا الجنسين من الذكور والإناث يتعدى أن يكون توسيعاً لحق المُلكية الحصرية للمرأة، وهي ملكية تمثل أساس الزواج الأحادي، وأداة لبسط الاحتكار على الماضي، على رأي سيغموند فرويد[34].

ومنذ طفولة الشعوب كانت العذرية تمثل قيمة اجتماعية ودينية مقدسة، وارتبطت فعالياتها بممارسة طقوسية لا تخرج عن إطار التحريم والتابو الذي يظل مشروطاً بالقرار الجماعي الذي يتأسس وفق قناعات تلك المجتمعات، «فحيث ما وضع البدائي طابو، يوجد خطر يرتاب منه. فالتابو تعبير اجتماعي مقنن عن مخاوف دفينة يعيشها الفرد وتعيشها المجموعة»[35] فكل ما يخرج عن هذه الأطر المُعدّة سلفاً، فإنه يعدّ خرقاً للناموس الاجتماعي والديني على حد سواء، ووفق ذلك كانت عملية افتضاض البكارة تمارس طقوسياً؛ لأنَّ إزالة العذرية تعني إسالة الدم، ولا يمكن إسالة الدم دون الاحتراس من ذلك بمجموعة من الممارسات والطقوس الشعائرية؛ لأنَّ الدم لدى الشعوب البدائية علامة سيميائية ترتبط مدلولاتها بقضايا كونية ووجودية متعددة، فهو علامة الحياة، والبعث، والميلاد، والخصب، بل هو القنطرة المؤدية نحو عالم الأرواح والجن والغيبيات، فحينما يكون الافتضاض خارج إطار الناموس الاجتماعي الديني، فإنَّ ذلك سيحيل إلى مجموعة من العقوبات التي أقرها المجتمع نتيجة لإسالة الدم دون أي غطاء ديني أو اجتماعي مبرر[36].

وعلى هذا الأساس، عَرفت المجتمعات أشكالاً متعددة من القوانين الخاصة بافتضاض البكارة، وتنوعت آليات كل مجتمع وتنظيماته التشريعية عن الآخر، وفقاً للاشتراطات الدينية، والاعتقادية، والاجتماعية، الخاصة بكل مجتمع، وتعددت أنواع الزواج، من المشاعية إلى الملكية الفردية والزواج الأحادي، وعلى امتداد هذا التاريخ ظلت البكارة موضوعاً شاغلاً من أبرز ما يجب تنظيمه وفق مقتضيات الدين والعرف الاجتماعي؛ لأن «أهم مهمة تقوم بها الأخلاق هي دائماً تنظيم العلاقات الجنسية»[37].

ومن الملفت أنَّ مصطلح العهر لم يكن موجوداً في المجتمعات البدائية، لأنه مرتبط بمهنة تعد من أقدم المهن، ولكن ظهورها كان متأخراً نسبياً؛ لأنها نشأت مع المدنية وظهور الملكية، واختفاء الحرية الجنسية قبل الزواج، وما عُثر عليه من ممارسات لفتيات يبعنَّ أنفسهنَّ للغرباء أو ما كان يمارس في المعابد، فإنَّ ذلك لم

34 - سيغموند فرويد، طابو البكارة، مقال ضمن كتاب تابو البكارة، مجموعة مقالات، تصدرها جريدة الأوان، مصر. د.ت: 72

35 - رجاء بن سلامة، لزوم ما لا يلزم من الألم، ضمن كتاب تابو البكارة، سبق ذكره: 23

36 - عبد الصمد الديالمي، نحو موت العذرية، ضمن كتاب تابو البكارة، سبق ذكره: 5

37 - ول ديورانت، قصة الحضارة، سبق ذكره: مج1-2/ ج1، نشأة الحضارة (الشرق الأدنى): 79

يكن على وفق النظام الاجتماعي الراهن عهراً، وإنَّما كان ممارسة تعبدية، وتضحية، دينية، أو لإشباع أبوين مقتصدين، أو لإشباع آلهة جائعة[38]، وهو قائم وفق تشريع ونظام اجتماعي متوافق عليه آنذاك.

وسيكون الأمر نفسه مع العفة، التي سنجدها مفهوماً نسبياً ومتغيراً وفق نظام كل مجتمع على حدة، فإذا كان من المتعارف عليه أنَّ العفة تتعلق بالبكارة وسلامتها، ففي بعض الأقوام لم يكن ما تخشاه الفتاة فقدان بكارتها، بل أن يشيع عنها أنها عقيم، فإذا حملت قبل الزواج كان ذلك مُعيناً لها على الزواج، أكثر منه عائقاً؛ لأنه سيبشر بصلاحيتها للإنجاب، وتحصيل رأس المال بوساطة الأولاد، بل هنالك جماعات كانت تنظر إلى البكارة نظرة ازدراء، لأنَّها تعني عدم إقبال الرجال عليها، وفي إحدى القبائل تثور ثائرة العريس إذا ما وجد عروسه بكراً، وفي حالات كثيرة كانت البكارة حائلاً دون الزواج، وكانت تلقي عبئاً ثقيلاً على الزوج بإحساسه أنه مخالف لأمر التحريم القاضي بأن لا يريق دم أحد من أعضاء قبيلته[39] (كما هو معروف عن القبائل الطوطمية)، ولهذا تعددت الأساليب بالتخلص من البكارة وفق ما يراه المجتمع مناسباً، فكان يحدث أن تسلم البنات أنفسهنَّ لغريب عن القبيلة ليزيل عنهنَّ هذا العائق، وفي بعض المجتمعات تبحث الأمهات عن رجال يفضون بكارة بناتهنَّ، وفي أخرى ترى الفتيات أنفسهنَّ يرجون المارة في الطريق أن يؤدوا لهنَّ هذه المكرمة، فما دمنَ أبكاراً فلا يستطعن الزواج، وفي بعض القبائل تضطر العروس أن تسلّم نفسها لأضياف العريس قبل دخولها إلى زوجها، وعند بعضها يستأجر العريس رجلاً ليفض له بكارة عروسه، وقبائل أخرى يقوم موظف خاص يتقاضى راتباً تكون مهمته أن يؤدي هذا العمل نيابة عمن اعتزموا الزواج[40].

ووفق هذه المعطيات، تكون مسألة العفة المتعلقة بالبكارة مسألة متغيرة من شعب إلى آخر، ومن مجتمع إلى ثانٍ، بحسب المحددات الثقافية والدينية والاجتماعية، وفي كل الأحوال كانت البكارة تشكل قلقاً كبيراً بالنسبة إلى الفتيات؛ لأنَّها ستكون إزاء حمل ثقيل عليها أن تحافظ عليه طيلة بقائها دون زواج، أو يجب التخلص منه إن كان عائقاً في سبيل الزواج.

---

38 - المرجع نفسه: مج1-2/ ج1، نشأة الحضارة (الشرق الأدنى): 80

39 - وربما كان هذا الاعتقاد البدائي هو المؤسس للنظام الاجتماعي العربي منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى اليوم، والقاضي باستحسان التزويج من غير بنات القبيلة الواحدة أو بنات العم، فقد ورد أنَّ أكثر ما كان يخطب الرجل إلى غير عشيرته، وحجتهم في ذلك أنَّ الغرائب من النساء أوّلد للنجباء من الأبناء، فأما بنات العم فلا يلدن فيما زعموا إلا ضعاف الأجسام والأحلام، ولإضفاء المشروعية على هذا النظام فإنه لابد من العبور من الميثولوجي إلى البيولوجي، ومن الميتافيزيقي إلى الديني ليكسب بذلك صيغته النهائية داخل منظومة الأنساق الاجتماعية، كما في الأخبار الواردة عن كبار المسلمين أو حتى عن الرسول، فقد جاء في أحد الأخبار: حدثنا أحمد، حدثنا أحمد بن علي، حدثنا الأصمعي؛ قال: قال رجل من حكماء العرب: بنات العم أصّبر والغرائب أنجب، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن أعجمية، والعرب تقول: اغتربوا ولا تضووا (أي انكحوا في الغرائب)، فإنَّ القرائب يضوين الأولاد: أبو بكر الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن ال سلمان، دار ابن حزم، أم الحصم- البحرين، ط1، 1998: مج8/ ج25/ ح 3354/ 46. وهذا الحديث نفسه ينسب إلى الرسول: ‹اغتربوا لا تضووا›: عبد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة- المملكة العربية السعودية، ط2، 1993: 55. ولنا أنْ نلاحظ التضارب في السند الاخباري بين ما قالته العرب، وبين ما قاله الرسول. وكذلك ورد أنَّ عمر بن الخطاب نظر إلى قوم من قريش صغار الأجسام فقال: مالكم صغرتم؟ قالوا: قربُ أمهاتنا من آبائنا. قال: صدقتم. فتزوجوا في البعداء فأنجبوا: المرجع نفسه: 55.

40 - ول ديورانت، قصة الحضارة، سبق ذكره: مج1-2/ ج1، نشأة الحضارة (الشرق الأدنى): 80- 81.

وربما يتعدى الأمر حتى يصبح قلقاً اجتماعياً يلتقي فيه كل أفراد المجتمع، فالرجال مثلاً سيصبحون مهتمين بموضوع البكارة؛ لأنه سيكون دليل عفة المرأة، وأنَّها لم تتعرض من قبل إلى ممارسة جنسية مع رجل آخر، أو سيكون الرجل متخوفاً من وجود هذا العائق الذي يعترض زواجه من فتاة يحرص كل الحرص على أن تكون غير عذراء كي لا يضطر إلى إراقة الدم، أو لضمان نجابة الأولاد[41]، فالعذرية أو البكارة قلق يصيب المجتمعات؛ لأنه خاضع لقوانينها الأخلاقية التي تقتضي تنظيمه وفق انصياعها لمحدداتها الاجتماعية والثقافية والدينية، وهو ما تنبّه له بيير بورديو الذي أشار إلى أنَّ العالم الاجتماعي هو الذي يبني الجسد واقعاً مجنّساً، ومؤتمناً على مبادئ رؤية مجنَّسة، وينطبق هذا البرنامج على كل الأشياء في العالم وفي المقام الأول على الجسد نفسه في حقيقته البيولوجية، لأنه سيكون مقنعاً بالنسبة (للرجل/ المرأة) الاختلاف بيولوجياً، وفق مبادئ رؤية أسطورية للعالم، لتصبح حقيقة متأصلة ومقنعة، وسينعكس ذلك حتى في تقسيم العمل، والممارسات والقوة، والهيئة، والثياب.. إلخ، وبهذا سيبدو الاختلاف التشريحي بين الأعضاء التناسلية وكأنه التبرير الطبيعي للاختلاف المبني اجتماعياً بين النوعين، وسيغدو الجسد سجلاً لمبادئ كونية تخضع لعمل بناء اجتماعي؛ لأنها متأصلة بنيوياً ومعللة في الوقت نفسه لتبدو طبيعية أو شبه طبيعية[42]، وهذا ما سيُدوِّن في ذاكرة الجسد قلق العذرية الذي غذّته آليات النظام الاجتماعي وفق برنامجها السيسيوديني لتكون البكارة أهم ما يمكن الحفاظ عليه من قبل الفتيات لأنه جواز العبور، أو سيكون جوازاً للانفصال والقطيعة الاجتماعية في حال فقدانه.

إلى هنا وجدنا أنَّ العذرية نتيجة أخلاقية لبناء اجتماعي اعتقادي ديني، متأرجحة بين قوى الحضور والغياب، وبحسب ما تقتضيه الرؤية الاجتماعية، وما تتوافق عليه البنية العامة للجماعات، والعرب من بين المجتمعات التي وضعت قوانينها الناظمة لأحوالها الجنسانية، فلم تعد البكارة شرطاً للعفاف والعذرية فحسب، بل سيكون فض البكارة شرطاً من اشتراطات الفحولة في طقوس من العنف والممارسة الجنسية وإسالة الدم والتباهي؛ لأنَّ الرجولة بوصفها القوة، والفضيلة، والشرف والملكية، وفق ما أسسه النظام الاجتماعي عبر برنامجه الكوني «تبقى غير منفصلة عن الجسد، أو الرجولة الجسدية، ولاسيما عبر دلائل القوة الجنسية -فضّ بكارة الخطيبة، ذرية ذكور وفيرة... إلخ- المنتظرة من الرجل الذي هو حقيقة رجل»[43]؛ وذلك بعد أن قاد التحول الهائل النظر إلى البكارة من الخطيئة إلى الفضيلة، حين قام الناس بنظام الملكية «فالعفة الجنسية

41 - تصف رجاء بن سلامة فرضيتها بالمغامرة لتحديد ثلاث مراحل مرّ بها تابو البكارة، وهي: مرحلة إحيائية: تعكسها مجتمعات وصفها علماء الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا ويغلب عليها تجنب الزوج افتضاض بكارة زوجته بنفسه، حيث توكل العملية إلى عجوز أو شخص محترف أو كاهن، أو توكل إلى الأب أو إلى مجموعة من فتيان القبيلة، ويتم الافتضاض بالإصبع أو بآلة أو بعملية جنسية، وقد وصف فرويد كل هذه الحالات، وبين أنها تعكس الخوف من الدم، نظراً لأنه مقر الحياة حسب التصورات العتيقة، ونظرا لأنه مرتبط بالقتل وبالتصورات السادية. وهناك خوف آخر بيَّنه فرويد وغيره وهو القلق من أوائل الأمور، وهو ما يستدعي طقوس عبور من شأنها أن تخفف من هذا القلق. ومرحلة ثانية هي مرحلة توحيدية: يغلب فيها خوف من نوع آخر، لم يذكره فرويد وهو الخوف من اختلاط الأنساب، فمعلوم أنَّ الأديان التوحيدية أعلت من شأن الأب والنسب الأبوي، وطورت أجهزة الرقابة على جسد المرأة، ويظهر ذلك جلياً في فرض الحجاب على النساء الحرائر، وإبطاله أشكال من الزواج الأمومي، وإقراره حق اللعان (اتهام الزوج زوجته بالزنا وتنصله من الطفل الذي انجبته)، والتأكيد على عدة المطلقة والأرملة وتقنينه الدقيق لها. ومرحلة ثالثة هي مرحلة حداثية فردانية، تتغلب فيها هواجس الفرد ورغبته في محو آثار الآخر من المرأة التي يقبل على زواجها، وفي احتكار حاضرها وماضيها وذاكرتها، فالغيرة الفردية تتغلب في هذه المرحلة، لتختفي مخاوف الدم البدائي، ولم يعد للخوف من اختلاط الأنساب الوقع نفسه، لتطور المعارف الطبية وأسباب أخرى: رجاء بن سلامة، لزوم ما لا يلزم من الألم، ضمن كتاب تابو البكارة، سبق ذكره: 23-24

42 - بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، سبق ذكره: 24 وما بعدها.

43 - بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، سبق ذكره: 30.

بالنسبة إلى البنات قبل الزواج جاءت امتداداً للشعور بالمِلك[44] الذي أحسه الرجل إزاء زوجته بعد أن أصبحت الأسرة أبوية يرأسها الزوج؛ وازدادت قيمة البكارة لأنَّ العروس في ظل نظام الزواج كانت تُشترى بأغلى الأثمان إنْ كانت بكراً من ثمن أختها التي ضعفت إرادتها، إذ البكر يبشر ماضيها بالأمانة الزوجية التي أصبحت عندئذ ذات قيمة كبرى في أعين الرجال الذين كان يؤرقهم الهمّ خشية أن يورّثوا أملاكهم إلى أبناء السفاح»[45]، وبهذا تمت إعادة صياغة الجسد وبنائه تخيلياً ووفق نظام من العلامات الرمزية والقناعات الميثولوجية، وتم «توظيف البيولوجيا كتبرير أيديولوجي.. تدعم شرعية المفاهيم السائدة والممارسات الأصلية»[46]، التي ستتم صياغتها منذ الولادة حتى الكهولة، إذ يمكن للأجساد حينها أن تستجيب أو أن تمتثل لتلك الحقائق المفترضة[47]، بل هناك نموذج متخيل للجسد يسعى المجتمع إلى استحضاره دائماً، ليظل في حدود الثقافي، فنجد أنفسنا في مراقبة دائمة للجسد، وبحث ملحّ عن علامات ورموز وصفات مرغوبة، لـــ «أنَّ الجسد الإسلامي جسد متخيل بقدر ما هو واقعي، إنَّه جسد ثقافي يتبلور في صلب تمظهرات المقدس، بل إنه أحد تمظهراته الأساسية سواء في خاصيته الجمالية أو الجنسية أو الرمزية»[48]، فعندئذ تكون البكارة من أهم شروط الجسد الثقافي، وعلى هذا النحو نجد أنَّ البكارة تشكل قيمة عليا في المجتمع العربي، إذ «يوفر اشتراط البكارة للرجل فرصة ممارسة طقس الافتضاض؛ أي اختبار فحولته وعرضها أمام المرأة وأمام الآخرين، كما أنه يشعر الرجل بنشوة الانتصار ولذة الصنع، ففتح الرحم والإبحار في مسالكه الخفية هو بمثابة حجة على قدرة الرجل على التحدي ومواجهة القوى السحرية»[49]، وشرط الامتلاك الخاص الذي تمتع به الرجل منذ القدم، وحافظ على مركزيته

---

44 - كان لظهور الملكية في المجتمع السومري الأثر الذي أفضى إلى تحول نوعي على مستوى الأفكار الاجتماعية، فمن الفعل الزراعي القائم على القضيب الذكوري (المني/ الماء) الوسيلة الوحيدة في زمن إنكي، فإنَّ التقسيمات الاقتصادية لا تجد مكانة لها؛ لأنَّ هذه الإنتاجية تعتمد الوسيلة القضيبية في الإنتاج أو العمل الجنسي القائم في الأرض أو في جسد الأنثى، وهذا ما يسمح بإباحة الارتباط العائلي بالأصول (الأم/ الأبناء) لأنها تبقى مجرد فضاءات إنتاجية موصولة في تكوينها بالذات المنتجة، ولكن في عصر الصناعة (الخزف خاصة) تغيرت تجربة الإنتاج، فأصبحت المنتجات سلعاً قابلة للبيع والشراء وقاد ذلك إلى حتمية نقلها وتوزيعها، فتضاءلت سلطة الإنتاج لفائدة سلطة التوزيع، فنجم عن ذلك ظهور الملكية باعتبارها شرطا أساسيا لتحقيق الروابط التبادلية، وأصبحت المنتجات الاستهلاكية (الأم/ الأبناء) صورة من صور تجذير الملكية فنشأ تحريم الارتباط بهذه الأصول، فالتبادل بين العائلات لا يختلف عن التبادل بين السلع، والزيجات بالنهاية ليست إلا نوعاً من البيع والشراء، حتى أقدمت شريعة حمورابي على تنظيم القوانين الخاصة بانتظام العلاقات العائلية ضمن انتظام أكبر يخص العلاقات التجارية والملكية والقضاء، فأصبحت المرأة تملك، وأصبحت علاقتها الاجتماعية تغادر حيز السلبية الإنتاجية إلى حيز التبادل التجاري، وهو ما يجعلها سلعة أو بضاعة داخل العلاقات الذكورية التبادلية. صالح الدريدي، صراع الهويات، سبق ذكره: 259- 261

45 - ول ديورانت، قصة الحضارة، سبق ذكره: مج1-2/ ج1، نشأة الحضارة (الشرق الأدنى): 81

46 - كرس شلنج، الجسد والنظرية الاجتماعية، ترجمة: منى البحر، نجيب الحصادي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث- كلمة، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2009: 146، 151

47 - تشير دراسة الأنثروبولوجيَّين هاستنغز دونان وفيونا ماغوان حول موضوعة الأجساد الغربية والمترحلة من بلد إلى آخر، ومدى تشدد السلطات الأمريكية على سبيل المثال في فحص الجسد من الأمراض والعدوى نتيجة للممارسات الجنسية، وعلى هذا الأساس تمت تصنيفات عرقية واثنية وجنسية حول المهاجرين، ولكن مانعثر عليه في دراستهما هو متابعتهما لسرديات المهاجرين الذين تغيرت حياتهم الجنسية بعد الهجرة من بلدهم الأصل إلى الآخر المضيف، وأنَّ استجابة منهم للتغيرات في ظروف الحياة اليومية، وانصهاراً في النظام الاجتماعي المختلف تحصل مجموعة من المكاسب الجنسية المتعذرة سابقاً بالنسبة إلى النساء، وقد تتغير حياتهنَّ الجنسية، وتحويل ديناميات السلطة في العلاقات والمواجهات الأيروسية، وقد يدفع هذا في منحهنَّ الثقة اللازمة للاشتراك في ممارسات جنسية لم يكن يفكرنَ فيها، أو حتى يعرفنها في السابق، أو دفعهن إلى أخذ زمام المبادرة في علاقاتهنَّ الحميمية.. إلخ: هاستنغز دونان- فيونا ماغوان، أنثروبولوجيا الجنس، ترجمة: د. هناء خليف غني، المركز الأكاديمي للأبحاث، العراق- تورنتو- كندا، ط1، بيروت، 2017: 296 وما بعدها. وهذا يؤكد الدور الفعلي لهيمنة النظام الاجتماعي في بسط النفوذ الجنسي على أفراد المجتمع، وأنَّ الفرد أيَّ فرد سيكون منصاعاً لإرغامات التشكل الجندري المهيمن، ومتى ما تحرر من هذه الإرغامات وتوَّفرت له بيئة مغايرة، أُتيح له التحوّل والتكيّف بحسب النظام الاجتماعي وسياقات الشرط الجماعي.

48 - فريد الزاهي، الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، إفريقيا الشرق، المغرب- لبنان، 1999: 10

49 - آمال قرامي، الاختلاف، سبق ذكره: 257.

من خلاله، فالعذرية إذن تعد تمظهراً لهاجس ذكوري محض[50] شاع الاعتقاد السائد فيه أن تلك البكارة هي ما يحفظ شرف العائلة ونجابة الأولاد وكرامة الرجل، بل سيتضمن مفهوم الشرف نفسه أيديولوجية جنسية تجعله مرتبطاً بالمرأة[51]، ولا قيمة لأي فتاة لم تكن بكراً، بل تتعرض للعقاب أو الطرد والقتل، إلا من كانت مطلقة أو أرملة فتكون في مرتبة متدنية قياساً بالعذراوات، إذ ستظل موضوعة العذرية «جنحة أنثوية مدمجة بها، تلاحقها كلعنة، وتوليفة الذكر الذي يتحرى الجسد في نطاق التفاوت القيمي، عبر دمغة تحيل إليه وتهدد المرأة في جسدها، منذ البداية، الجسد الذي لا يمكنه الانتقال المرحلي من وضعية العذراء إلى وضعية المرأة إلا بتدشين احتفالي، طقوسي من قبل الذكر بالذات، وبشهادة شهود، عبر رؤية الدم الأحمر الخاص، وما في ذلك من محاكمة لكينونة الجسد الأنثوي بالذات»[52]، ليعبر عن قيم ذكورية عليا في الامتلاك والقوة والهيمنة. ولهذا، نجد في تاريخ العرب من الزواج يوم الأملاك- وهو يوم العقد، ويوم البناء- وهو يوم الدخول[53].

ومن هنا أصبحت البكارة من أهم مميزات الفتاة المقبلة على الزواج، بل من أهم علامات عذرية الفتاة وشرفها، وصونها لنسب القبيلة وتاريخها، ومن جانب آخر تحولت هذه الرؤية إلى شرط أساس في التزويج واختيار المرأة للمعاشرة وإنجاب الأولاد، واستحب المجتمع الزواج من الأبكار؛ لأنهنَّ محصنات من الآخر ومن تاريخ العار الذي يمكن أن يلحق بالرجل إذا ما ارتبط بفتاة فاقدة للبكارة، وعلاوة على ذلك جاءت الرغبة الذكورية في توصيف الأنموذج المثال بالأبكار، دون سواها من مواصفات الإنسانية التي يمكن أن تتصف بها المرأة، على أن الأبكار لا تعني مطلقاً صغر السن؛ لأنَّ الأبكار جمع عذراء ومعناها ذات عذرة، والعذرة البكارة، أو ما للبكر من الالتحام قبل الافتضاض[54]، والعذراء البكر، وعذرة الجارية بكارتها[55]؛ أي إنَّها ستظل مطلوبة مادامت محافظة على بكارتها إلى الحد الذي لا يخرجها عن دائرة المثال المرغوب فيه.

ولو راجعنا سرديات العرب القدماء، لعثرنا على العديد من التصورات عن زواج الأبكار، بل تجاوز الأمر حتى أصبح من المألوف أن تتخم المدونة الفقهية والحديثية بالأخبار ذات النزعة الدينية التي توصي بزواج الأبكار، كما في هذا الخبر: «**حدثنا عبد الله بن معاذ. حدثنا أبي. حدثنا شعبة عن محارب، عن جابر بن عبد الله. قال: تزوجتُ امرأة. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ‹هل تزوجت؟› قلت: نعم. قال ‹أبكراً**

50 - فاطمة المرنيسي، العذرية والبطركية، ضمن: بينار إيلكاركان، المرأة والجنسانية في المجتمعات الإسلامية، سبق ذكره: 241

51 - خلود السباعي، الجسد الأنثوي وهوية الجندر، سبق ذكره: 193- 208

52 - إبراهيم محمود، زنبق شهريار، جماليات الجسد المحظور في الرواية النسوية العربية، دار الحوار، سورية- اللاذقية، ط1، 2012: 93

53 - عبد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، سبق ذكره: ج1/ 136- 142

54 - ابن منظور، لسان العرب، سبق ذكره: مج4/ عذر/ 550

55 - ويقال دُرَّة عذراء: لم تثقب، ورملةٌ عذراء لم تُوطأ: المعجم الوسيط: أعْذَرَ/ 590

أم ثيباً؟، قلت: ثيباً. قال ‹فأين أنت من العذارى ولعابها›»[56]، وآخر مثله: «**عبد الرزاق عن معمر عن ابن خثيم عن مكحول قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم بالأبكار فانحكوهنَّ، فإنهنَّ أفتخ أرحاماً، وأعذب أفواهاً، وأغر غُرَّة**»[57]، وعلى هذا الأساس أصبحت المرأة وحدها المطالبة بالبكارة والعفة والسجل التاريخي الخالي من أيّة مشاركة سابقة مع آخر؛ أي أنْ تكون بعيدة عن كل ما يخلّ باشتراطات الملكية الخاصة، في الوقت الذي لم يراجع فيه الرجل تاريخه السابق، ولم يشترط على نفسه العذرية أو البكارة أو حتى مغامرات جنسية سابقة، على الزواج، «وبهذا قضى على البنات وحدهنَّ أن يعانين الخوف على بكارتهنَّ، فأثر فيهنَّ هذا الوضع على صور شتى..»[58]، وأصبحت البكارة من أخطر التابوهات التي صنعتها المجتمعات وعانت منها الإناث، لتتحول إلى قلق دائم لا ينتهي إلا مع الزواج والملكية، بعد أن تحول الجسد بكامله إلى «مجرد معبر للوظائف الدينية والدنيوية، حيث ظل خادماً للمقدس الإسلامي وسنداً له»[59]، وهو ما صنعته المدونة الفقهية ورسمت أبعاده، ومنحته صفاته التكاملية الخاضعة للتصورات العربية الإسلامية للجسد وخاضع لمعطيات الثقافة الراهنة.

لم يقف الأمر في المجتمع العربي الإسلامي مع البكارة إلى هذا الحد، بل تحوَّلت بوساطة القوى الجندرية إلى يوتوبيا وعالم ساحر من الملذات، راح يحلم بها كل رجل يعيش هذا الواقع المجندر، فإذا كانت الفتاة العذراء هي غاية ما يطلبه الرجل في حياته، فإنَّها ستتحول إلى رغبة كبرى يتمنى نوالها حتى في عالمه الآخر، بل راحت تلك المنظومة الجندرية تلوّح بهذا العالم اليوتوبي للرجال، فليس غريباً أن نجد تفسير قوله تعالى: (في شغل فاكهون) من الآية القرآنية: {*إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ} [يس: 55][60]؛ أي بافتضاض

56 - مسلم، صحيح مسلم، سبق ذكره: ج2/ ب16/ ح 55 (715): 1087. والأخبار في هذا الباب لا تحصى: البخاري، صحيح البخاري، سبق ذكره: ب9/ ح5077، 5078/ 1102-1103. و: السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- محمد كامل قرهبللي-شادي محسن الشياب، دار الرسالة العالمية، دمشق- سوريا، ط خاصة 2009: ج3/ ك6/ ب3/ ح 2048- 2050/ 391-395. و: البيهقي، معرفة السنن والآثار، تحقيق: عبد المعطي امين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي- باكستان، دار قتيبة، دمشق - سوريا، دار الوعي حلب- القاهرة، ط1، 1991: ج10/ ك23/ ب4/ ح -13559 13627/ -41 53. و: ابن أبي شيبة، المصنف، سبق ذكره: ج4/ ك9/ ب 265/ ح17694- 17698/ 52

57 - المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني: ج6/ باب نكاح الأبكار والمرأة العقيم/ ح 10341/ 159 ومن الجدير بالذكر هنا، أنَّ الرسول محمد لم يتزوج بكراً سوى عائشة بنت أبي بكر: البخاري، صحيح البخاري، سبق ذكره: ب9/ ح 5077، ح 5078/ 1102- 1103

58 - ول ديورانت، قصة الحضارة، سبق ذكره: مج1-2/ ج1، نشأة الحضارة (الشرق الأدنى): 82

59 - فريد الزاهي، الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، سبق ذكره: 26

60 - يس: 55. ولكي نتتبع سياق الآية ضمن السورة فهي: {إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ *فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ *هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرائِكِ مُتَّكِئُونَ *لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ *سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}.

العذارى[61]، لأنَّها أصبحت من الممارسات المشتهاة، فلابد أن تكون من جوائز الذكورة في دار الآخرة[62]، وعلى هذا الأساس ستكون الصياغات الخبرية حاضرة في تشكيل صورة الجنة على وفق المخيال الذكوري وعلى نحو لا يقل عما صنعه المفسرون، وربما كانت مقولاتهم التفسيرية هي الأساس الاعتقادي الذي دفع بالمنظومة الجندرية إلى خلق تصورات تشحذ المخيال العربي في رسم ملامح الجنة التي يحلم بملذاتها الجنسية، كون تلك «التمثيلات التأويلية في الإسلام تتمتع بحضور كبير يجعلها امتداداً للنصّ وجزءاً منه وتتمة لقراءته. لقد احتلّت التمثيلات التأويلية المرتبطة بأدوار الرجال والنساء الجنسية وما يترتب عليها من نتائج مساحةً وسلطةً فاعلتين لا سبيل إلى نقدهما أو مراجعتهما أو تفكيكهما»[63]؛ لأنَّها ستكون محيطة بالمقدس، وستنال على وفق ذلك صفة التقديس التي لا يمكن معها المراجعة أو النقض، وهذا هو ما تراهن عليه القوى الجندرية في سبيل تمرير الأنساق ومنحها الفاعلية والمقاومة في آن واحد.

ولو راجعنا تلك المدونة الكبرى لوجدنا العديد من الأخبار التي تخصّ البكارة، وأن الرجل لا شغل له في الجنة سوى افتضاض البكارات، وأنَّ الجنة مليئة بالأبكار، نذكر منها هذا الخبر: «**حدثنا عُبيد الله بن عبد الرحمن السكري: حدثنا أحمد بن يوسف: حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سلمان يقول: إنَّ في الجنة أنهاراً على شاطئها خيام فيهنَّ الحور، يُنشئ الله خلق إحداهنَّ إنشاءً، فإذا تكامل خَلقها ضربت الملائكة عليهنَّ الخيام، جالسة على كرسي ميل في ميلٍ، قد خرج عجيزتها من جوانب الكرسي، قال: فيجيء**

---

61 - للمزيد يمكن الاطلاع على ما جاء في المدونة التفسيرية، فمن مفسري القرن الأول الهجري: ابن عباس: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1992: 468. ومن القرن الثاني: مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، سبق ذكره: ج3/ 582. و: سفيان الثوري، تفسير سفيان الثوري، سبق ذكره: 250- 251. ومن القرن الثالث: أبو الحسن القمي، تفسير القمي، مؤسسة الإمام المهدي، قم- إيران، ط1، 1435: ج3/ 860. ومن القرن الرابع: الطبري، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، سبق ذكره: ج6/ 282-283. و: الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، سبق ذكره: ج4/ 291. و: السمرقندي، تفسير بحر العلوم، سبق ذكره: ج3/ 103. و: ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز، سبق ذكره: مج4/ 48. ومن القرن الخامس: الواحدي، الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، سبق ذكره: مج2/ 902. و: الماوردي، النكت والعيون- تفسير الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت- لبنان. د.ت: ج5/ 24. و: الثعلبي، الكشف والبيان، سبق ذكره: ج8/ 131. ومن القرن السادس: الزمخشري، تفسير الكشاف، سبق ذكره: 897. و: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، سبق ذكره: 1175. ومن القرن السابع: الفخر الرازي، التفسير الكبير، سبق ذكره: ج26/ 91 وما بعدها. ولا يقف الأمر عند حدود المفسرين أو كتب التفاسير، بل يتعداه إلى المدونات الحديثية الزاخرة بالأخبار الواردة في معنى قوله تعالى: {فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ}، نذكر منها: «أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، وأبو سعيد ابن أبي عمرو قالا: ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، أنبا العباس بن الوليد، أخبرني ابن شعيب، أخبرني الأوزاعي عن قول الله عز وجل: {إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ}. قال: ‹شغلهم افتضاض الأبكار›». البيهقي، البعث والنشور، تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت- لبنان، ط1، 1986: باب ما جاء في صفة حور العين والولدان والغلمان/ح 361: 221. ومنها: «اخبركم أبو عمر بن حيوية حدثنا يحيى حدثنا الحسين أخبرنا سفيان عن أبي عمرو كوفي له عن عكرمة في قول الله: {إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ} قال في افتضاض الأبكار». عبد الله المروزي، كتاب الزهد ويليه كتاب الرّقائق، تحقيق: حبيب الرحمن الاعظمي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 2004: ح 1586/ 430. ومثله: «أخبرنا أبو القاسم بن محمد الخبارز- بأصبهان- أن محمد بن رجاء أخبرهم، ابنا أحمد، ابنا أحمد بن موسى بن مردويه، ثنا محمد بن أحمد بن يزيد بن سنان، ثنا محمد بن زريق بن جامع المصري، ثنا سهل بن أيوب، ثنا أسباط بن محمد، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس- في قوله: {إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ} قال: افتضاض الأبكار». : ضياء الدين المقدسي، الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر، بيروت- لبنان، ط3، 2000: ج12/ ح289/ 260. وجاء: «وفي قوله تعالى: {إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ} شغلهم النعيم الذي شملهم وغمرهم بسرور عما فيه أهل النار من العذاب، عن الحسن والكلبي؛ فلا يذكرونهم ولا يهتمون بهم وإنْ كانوا أقاربهم؛ وقيل: شُغلوا بافتضاض العذارى، عن ابن عباس وابن مسعود؛ وهو المروي عن الصادق (ع)، قال: وحواجبهن كالـــ..». المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج8/ 94

62 - ولا نعرف القرينة اللغوية، أو القرآنية التي دفعت بالمفسرين إلى هذا الرأي في تفسير الاشتغال بأنَّه افتضاض بكارات العذارى، ولم نجد من المفسرين من قدم دليلاً على هذا الراي، سوى أنَّه مأثور عن السابقين من العصر الشفاهي وحتى عصر التدوين، لتستقر هذه الرؤية في مدونات التفسير جيلاً بعد جيل.

63 - هيثم سرحان، خطاب الجنس، سبق ذكره: 138

أهل الجنة من قصورهم يتنزهون ما شاءوا، ثم يخلو كل رجل منهم بواحدة منهنَّ. قال أبو سليمان: كيف يكون في الدنيا حال من يريد أن يفتض الأبكار على شاطئ الأنهار في الجنة»[64].

إنَّ فكرة الحور والأبكار والملذات الجنسية في الحياة الآخرة لم تكن جديدة على مجتمعات الشرق، والديانات السابقة، بل كان هذا الحلم سابقاً عند السومريين، وبرز بشكل جلي في الديانة اليهودية، ومن بعدها المسيحية، فاليهود خصصوا مقاماً للأتقياء يفيض بالخصوبة، فالمتع كل المتع بانتظارهم بما فيها المتع الجنسية، وكذلك الأسقف عند المسيح يعتقد أنَّ الإنسان حين يعيش متبتلاً نقياً تستقبله الحور بأرحامهنَّ الصافية الخالصة؛ لأنَّ القديس لم يمارس الجنس في حياته الأرضية، فسيكون بانتظاره الشباب الدائم، والجمال المتجدد، والمتع الجنسية[65]، وهي النظرة ذاتها التي نجدها لدى علماء المسلمين من الفقهاء والمفسرين، بأنَّ الجنة هي دار المتع اللامتناهية: «وثواب أهل الجنة الالتذاذ بالمآكل والمشارب والمناظر والمناكح وما تدركه حواسهم مما يطبعون على الميل إليه، ويدركون مرادهم بالظفر به. وليس في الجنة من البشر من يلتذ بغير مأكل ومشرب وما تدركه الحواس من الملذوذات. وقول من يزعم: أنَّ في الجنة بشراً يلتذ بالتسبيح والتقديس من دون الأكل والشرب، قول شاذ عن دين الإسلام..»[66].

وعلى هذا الأساس، حلَّق المخيال العربي في رسم ملامح تلك الجنة التي وعد بها المؤمنون[67]، وهي لا تخرج مطلقاً عن تلك اليوتوبيا التي طالما حلم بها العربي واندغمت في مزاجه الذكوري. فتصورات عن جزر النساء العذارى، والفتيات الأبكار في المدن بعيدة، وقصص الجنس والنساء، كلها إسقاطات المخيال على الجنة، العالم الذي طالما حلم به الرجل، ليصبح كل تصوراته، ومحمولاته الثقافية، وعوالمه الذكورية المنشودة.

2-9- ناقصات عقل ودين:

قلنا إنَّ ذلك المتن الحكائي الموروث عن قصة آدم وحواء سيغدو متناً شاملاً لمختلف التشكلات الجندرية داخل المدونة الدينية؛ لأنه يسمح باختلاق التفرعات الثانوية والتأطير الحكائي كلَّما دعت الضرورة إلى ذلك، وهنا سنجد أنَّ هذه القصة سيعاد تشكيلها مرة أخرى بعدما يضاف إليها ما يزيد الهوة بين قطبي الذكورة والأنوثة.

---

64 - أبو طاهر المُخلّص، المُخَلّصيّات-وأجزاء أخرى، تحقيق: نبيل سعد الدين جرار، إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ط1، 2008: مج3/ ج9/ 111- 112. و: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1996: ج34/ 136- 137

65 - عبد الوهاب بوحديبة، الإسلام والجنس، ترجمة وتعليق: هالة العوري، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت- لبنان، ط2، 123:2001- 128

66 - محمد علي أيازي، تفسير القرآن المجيد المستخرج من تراث الشيخ المفيد، سبق ذكره: 308

67 - ظهرت العديد من الحكايات والأخبار التي تصف الجنة، وأصبحت في ما بعد مدونات وكتباً خاصة في وصف الجنة، وكانت موضوعة العذارى الأبكار إحدى تلك الحكايات التي ستملأ هذه الكتب، وعلى سبيل الذكر نأتي على خبر منها فيما جاء في وصف أنهار الجنة: «حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد، ثنا علي بن حفص المدائني، عن سليمان بن المغيرة، عن ابن المعتمر قال: ‹نُبئت أنَّ في الجنة نهراً يُنبت الجواري الأبكار›. وقال غيره: عن عمر بن إسماعيل عن أبي المعتمر». أبو نعيم الاصبهاني، صفة الجنة، دراسة وتحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، دار المأمون للتراث، دمشق، ط2، 1995: ج2/ 159

والعلة في أنَّ هذه الحكاية نراها ممتدة عبر القرون والأجيال وتتوارد في كل تصنيفات النصوص الدينية والتراثية والسردية، أنَّها تعلق كل ما تختلقه المنظومة الجندرية أو تنوي زرعه داخل الوعي الجماعي إلى تلك الحكاية الغيبية، فالميتافيزيقا هي آلة النسق الجندري التي يعتمد عليها دائماً بالإحالة بعد الترميز والإشارة والإيماء، فنجد أنَّه قد ذيلت هذه الحكاية بإضافة جديدة لم نألفها سابقاً ضمن ماورد من نصوص أعادت خلق الحكاية من جديد، ربما كانت تومئ من بعيد إلى تلك المعاني، ولكنّها هنا ستعلن بوضوح عما تريد وضعه داخل الحكاية الموروثة، إذ نقتطع منها هذا النص الذي تناول الحوار الذي دار بين الحية وآدم وحواء بعد أن تلبس إبليس بين لحييها، فلما آيس إبليس من آدم وحجاجه الدال على العقلانية والحكمة، يتجه إبليس والحية؛ لأنه متلبس بها لعقد الاتفاق مع حواء: «**فخاطب حواء من حيث يوهمها أنَّ الحية هي التي تخاطبها وقال: يا حواء أرأيت هذه الشجرة التي كان الله (عز** وجل) حرمها عليكما قد أحلها لكما بعد تحريمها لما عرف من حسن طاعتكما له وتوقيركما إياه؟ وذلك أنَّ الملائكة الموكلين بالشجرة التي معها الحراب يدفعون عنها سائر حيوانات الجنة لا يدفعونكما عنها إن رمتما فاعلما بذلك أنّه قد أُحل لك، وأبشري بأنك إن تناولتها قبل آدم كنت أنت المسلطة عليه، الآمرة الناهية فوقه. فقالت حواء: سوف أجرب هذا، فرامت الشجرة فأرادت الملائكة أن يدفعوها بحرابها فأوحى الله إليها: إنما تدفعون بحرابكم ما لا عقل له يزجره، وأما ما جعلته ممكّنا مميّزا مختاراً فكلوه إلى عقله الذي جعلته حجة عليه فإن أطاع استحق ثوابي، وإن عصى وخالف أمري استحق عقابي وجزائي، فتركوها ولم يتعرضوا لها بعدما هموا بمنعها بحرابهم، فظنت أنَّ الله نهاهم عن منعها؛ لأنَّه قد أحلها بعدما حرّمها، فقالت: صدقت الحية، وظنت أنَّ المخاطب لها الحية، فتناولت منها ولم تنكر من نفسها شيئاً، فقالت لآدم: ألم تعلم أنَّ الشجرة المحرمة علينا قد أُبيحت لنا؟ تناولت منها ولم تمنعني أملاكها، ولم أنكر شيئاً من حالي، فلذلك اغترّ آدم وغلط فتناول فأصابهما ما قال الله تعالى في كتابه: فأزلهما الشيطان عنها، بوسوسته وغروره»[68].

إلا أنَّ الذي صاغ هذا النص وأدخله إلى المدونة الدينية ركَّز على هشاشة عقل حواء التي مارست الحوار والكلام واستعملت الفعاليات العقلية والاستنتاجية لتصدق الحية، واستنتجت أيضا أنَّه لم يصبها شيء من أكلها الشجرة، ومن ثم مارست الإقناع المنطقي الخطابي لتؤثر في آدم وتقنعه بالأكل من الشجرة، في الوقت الذي نجد فيه آدم بعيداً عن تلك الهشاشة، بل إنَّ إبليس لم يقصده من أجل الإيقاع بعدما وجد من تكفيه تلك المهمة، وهو عقل حواء، وبذلك يصل لهما معاً، فكانت النتيجة العقلية التي توصلت إليها أنَّ عدم المنع دليل على صحة ما تفعله، فبادرت بعدها إلى آدم كي تقنعه بدهائها وحيلتها كما سيرسخ ذلك في ذهن المجتمع أنَّ المرأة وحدها قادرة على إقناع الرجل إنْ استعملت قواها السحرية الأنثوية في الحيلة والمكر والخداع.

---

68 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج11/ ب3/ ح46: 134. وفي تكملة الخبر: إنَّ إبليس أراد دخول الجنة فمنعته الخزنة، فأتى كل دابة من دواب الأرض وعرض نفسه عليها أن تحمله حتى يدخل الجنة ليكلم آدم وزوجه، فكل الدواب أبى عليه ذلك حتى أتى الحية وقال لها: أمنعك من ابن آدم فأنت في ذمتي إنْ أنت أدخلتني، فجعلته ما بين نابين من أنيابها ثم دخلت به وكانت كاسية على أربع قوائم من أحسن دابة خلقها الله تعالى كأنها بختية فأعراها الله تعالى وجعلها تمشي على بطنها»: ح47: 136. ويردف هذا بخبر آخر جاء فيه أنَّ حواء «كانت تغلف قرونها من أطراف شجرة الجنة، فلما هبطت إلى الأرض وبليت بالمعصية رأت الحيض فأمرت بالغسل» ب4:ح5: 143

ولكن المنظومة الجندرية لم تقف عند هذا الحد، بل داومت السعي على دسّ العديد من المقولات لتبلغ بالوعي الجماعي قناعته التامة بعدم عقلانية المرأة، وانفراد الرجل بامتلاك العقل والحكمة؛ ففي كل مرحلة من مراحل التأسيس الإخباري تصنع العديد من المقولات الجندرية التي تؤكد على نقص المرأة وكمال الرجل، ليصبح من الراجح لدى جميع أفراد المجتمع أنَّ المرأة بلاعقل، عن «**الحافظ عن أحمد بن عبد الله، عن عيسى بن محمد الكاتب عن المدائني، عن غياث بن إبراهيم، عن الصادق، عن آبائه (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع): عقول النساء في جمالهنَّ، وجمال الرجال في عقولهم**»[69].

فمن الواضح أنَّ تلك المقولات تخاطب ضحالة العقل الجماعي المغلف بالأنساق المهيمنة على كافة ممارساته العقلية والفكرية، فحينما يتعلق العقل بجمال المرأة مع ما يراجعه الفرد داخل عقله الجماعي سيجد أنَّ ذلك هو الصواب تماماً؛ لأنَّه أصبح بفعل مراحل من التجييل الجندري للعقل الجماعي من السهل على المنظومة الفقهية الجندرية إقناعه بوساطة المنافذ التي تلامس عقليته النسقية، فتتشكل في داخله معادلة جمال المرأة الظاهري مساوياً نقص عقلها وسذاجتها، وجمال الرجل مساوياً رجاحة عقله وحكمته، يضاف إلى ذلك أنَّ النص المجندر هو بالأساس نصّ متسلل عبر مدونة دينية تمتلك سلطة الخطاب وهيمنة النص، فتكتسب تلك المقولات النجاعة داخل لاعقل الفرد الواحد، وإنما العقل الجماعي داخل المجتمع بكامله، فحينما تكون أخبار مثل: «**عن ابن أبي الخطاب، عن محمد بن سنان، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر، عن أبيه، عن جده (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع) اتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهنَّ على حذر، إن أمرنكم بالمعروف فخالفوهنَّ كيلا يطمعنَّ منكم في المنكر**»[70]، فليس شرار النساء هنّ من يحذر منه، بل حتى خيارهنّ وإن كنَّ على المعروف؛ ذلك إن ارتفع معروف المرأة وخيرها وأثبتت قدرتها العقلية سترتفع جسامة الخطر المهدد للمنظومة الجندرية؛ لأنَّ ذلك سيحطم قاعدة الفحولة والذكورة العربية المؤسسة عبر قرون.

وحينما لا تمتلك المنظومة الفقهية ما يثبت حقيقة مقولاتها الجندرية، فإنها دائماً ما ترتكز على إحالات ميتافيزيقية لا يمكن الإمساك بها والتحقق من صحتها، فحينما يكون الخبر قد تقوَّل عن الخالق؛ فإنَّ العقل الجماعي لا يمتلك إزاء الحال هذه إلا الإيمان والتصديق والإذعان، مثل ماورد في خبر: «**عن ابن زياد، عن الصادق، عن آبائه (ع) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أصناف لا يستجاب دعاؤهم: رجل تؤذيه امرأته بكل ما تقدر عليه وهو في ذلك يدعو الله عليها ويقول: اللهم ارحمني منها، فهذا يقول الله له: عبدي أوما قلّدتك أمرها فإن شئت خلّيتها وإن شئت أمسكتها**»[71]، فالخالق تعالى لا يستجيب لدعائك المتخاذل إنْ لم تمارس سلطتك الذكورية الممنوحة لك، فليس لك أن تتهاون أمام ما يهدد القوى الذكورية، وتركن إلى الدعاء

69 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب2/ ح 3: 334

70 - المصدر نفسه: ج100/ ب2/ ح 4: 334

71 - المصدر نفسه: ج100/ ب2/ ح 6: 334

بهدايتها أو بعقابها؛ لأنها مارست الإيذاء بحق القيمة العليا / السيد/ الفحولة، بل يجب أن تكون الاستجابة نابعة من داخل العقل الذكوري نفسه في قهر تلك المرأة المهددة للفحولة، إما بطردها أو إسكاتها تماماً[72].

وهذا إنَّما يدل بوضوح على أنَّ المنظومة الجندرية حاولت قدر ما أمكنها من ثقافة أن تراهن على ضحالة العقلية الجماعية السائدة والمغلفة بالوعي الزائف الذي لا يتحسس مواضع التمرير والتلفيق والإحالة على الميتافيزيقي، فكان أن استطاعت خلق قيم ذكورية عليا وأخرى أنثوية متدنية، فنسبت العقل بقول الخالق نفسه، وبحسب السند الإخباري الموثوق والمقدس بأنَّه خاص بالذكورة/ الرجل/ آدم، وسلبته من الأنوثة/ المرأة/ حواء، فكانت النتيجة أن تكون المرأة تابعة، ومتعلقة بالرجل، ودون منه، وهو كل همتها، ويجب الحذر منها، وحبسها، بل حتى ضربها، لأنها لا تمتلك القدرة العقلية كما الرجل. فالمدونة تغذي تلك المقولات بالعديد من الأخبار، وتضع له سرديات تمنحها الشرعية القدسية، ولا تتردد في صناعة أخبار تُفيد أنَّ رسول الله قد مارس تلك الممارسات، كما في هذا الخبر: «**كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الحرب دعا نساءه فاستشارهنَّ ثم خالفهنَّ**»[73]. أو مثل هذا الخبر: «**قال (ع) طاعة المرأة ندامة**»[74]، أو «**عن أبي جعفر (ع) قال: لا تشاوروهنَّ في النجوى، ولا تطيعوهنَّ في ذي قرابة، إنَّ المرأة إذا كبرت ذهب خير شطريها وبقي شرهما: ذهب جمالها وعقم رحمها واحتدَّ لسانها، وأنَّ الرجل إذا كبر ذهب شرّ شطريه وبقي خيرهما: ثبت عقله واستحكم رأيه وقل جهله**»[75].

---

72 - الأخبار في هذا الجانب عديدة نذكر منها: «المفيد بإسناده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربعة مفسدة للقلوب: الخلوة بالنساء والاستماع منهنَّ والأخذ برأيهنَّ ومجالسة الموتى، فقيل: يا رسول الله وما مجالسة الموتى؟ قال: مجالسة كل ضال عن الإيمان وجائر على الأحكام»، و«بإسناد أخي دعبل، عن الرضا، عن آبائه، عن الباقر صلوات الله عليهم أنه قال: (أنفقوا مما رزقناكم» قال: مما رزقكم الله على ما فرض الله عليكم فيما ملكت أيمانكم (واتقوا الله) في الضعيفين النساء واليتيم فإنهما عورة» و«عن أبي الجارود، عن ابن طريف، عن ابن نباته قال: قال أمير المؤمنين (ع) : الفتن ثلاث: حب النساء وهو سيف الشيطان، وشرب الخمر وهو فخ الشيطان، وحب الدينار والدرهم وهو سهم الشيطان، فمن أحب النساء لم ينتفع بعيشه، ومن أحب الأشربة حرمت عليه الجنة، ومن أحب الدينار والدرهم فهو عبد الدنيا» و«عن علي، عن أبيه، عن علي بن معبد، عن عبد الله بن القاسم، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول ما عصي الله تبارك وتعالى بستة خصال: حب الدنيا وحب الرياسة وحب الطعام وحب النساء وحب النوم وحب الراحة» و«ابن المتوكل، عن السعد آبادي، عن البرقي، عن أبيه يرفعه إلى أبي عبد الله (ع) أنه قال: خمس من خمسة محال: النصيحة من الحاسد محال والشفقة من العدو محال، والحرمة من الفاسق محال، والوفاء من المرأة محال، والهيبة من الفقير محال» و«بالأسانيد الثلاثة، عن الرضا، عن آبائه (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع): للمرأة عشر عورات، فإذا زوجت سترت لها عورة، وإذا ماتت سترت عوراتها كلها» و«ابن المتوكل، عن السعد أبادي، عن البرقي، عن عبد العظيم الحسني، عن محمد بن عمر بن يزيد، عن حماد بن عثمان، عن عمر بن يزيد قال: قال أبو عبد الله (ع) : جاءت امرأة من أهل البادية إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعها صبيان حاملة واحداً وآخر يمشي، فأعطاها النبي صلى الله عليه وسلم قرصا ففلقته بينهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحاملات الرحيمات لولا كثرة لعبهنَّ لدخلت مصلياتهنَّ الجنة».. وغيرها الكثير. راجع: المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب2: 333. و: ج100/ ب4: 345 إلى آخر الباب، ومنها «ثلاثة مجالستهم تميت القلب: مجالسة الأنذال، والحديث مع النساء، ومجالسة الأغنياء».

73 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب2/ ح 21: 336. ومثله «وإياك ومشاورة النساء فإنَّ رأيهنَّ إلى أفن، وعزمهنَّ إلى وهن. واكفف عليهنَّ أبصارهنَّ بحجابك إياهنَّ، فإنَّ شدة الحجاب أبقى عليهنَّ، وليس خروجهنَّ بأشد من ادخالك من لا يوثق به عليهنَّ، وإن استطعت ألّا يعرفنَّ غيرك فافعل. ولا تُمَلِّكِ المرأةَ من أمرها ما جاوز نَفْسها، فإنَّ المرأة ريحانه، وليست بقهرمانة. ولا تعدُ بكرامتها نفسها، ولا تطعمها في أن تشفع لغيرها». الشريف الرضي، نهج البلاغة، سبق ذكره: 405. و: الكليني، الكافي- الفروع، سبق ذكره: ج5/ ب210/ح 7/ 202.

74 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب2/ ح 22: 336.

75 - المصدر نفسه: ج100/ ب2/ ح 24: 334. ومثله «وقال علي (ع): كل امرئ تدبره امرأة فهو ملعون» و«وقال (ع): فلخلافهنَّ البركة» و«عن أبي عبد الله (ع) عن ابائه (ع) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أطاع امرأته أكبّه الله على وجهه في النار قال: وما تلك الطاعة؟ قال: تطلب إليه الذهاب إلى الحمامات والعرسات والعيدان والنائحات والثياب الرّقاق فيجيبها». المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب 2، وب 3: 337 إلى آخر الباب.

إنَّ ما تدعو له هذه النصوص السردية هو إعادة إحياء العقلية الذكورية إن لم يكن المحافظة على ديمومتها، على أنَّ الإسلام قد أحدث نظاماً جديداً في مجتمع الجزيرة العربية، وكان يدعو بشكل تدريجي إلى تثبيت قواعده الأساسية من خلال إنتاج وإعادة إنتاج منظومات أخلاقية وسياسية واجتماعية واقتصادية، ولكن الإسلام كان حذراً في تعامله مع هذا الموضوع؛ إذ لم يقدم على ضرب جميع ما آمنت به الجماعة البشرية آنذاك، وانغرس في وجدانها عبر حقب بعيدة، وإنما عمد إلى قلب تلك المسلَّمات الراسخة بشكل عقائدي أو ديني، والأمثلة على ذلك عديدة بما لا يمكن إغفاله أو تناسيه مثل تعامله مع شرب الخمر، أو فرض العبادات أو زواج المحارم، أو تنجيس المأكولات والمشروبات وغيرها من الأمور، وفرض بعض الأحكام الأخرى أو الإبقاء عليها مثل بعض طقوس الحج والزواج وغيرها، وهكذا استمر الإسلام بتقديم السرديات الناظمة لأحواله المختلفة، للعبور من المرحلة السابقة له التي وصفها بالوصف الذي لم يسبق له في التاريخ، وهو (الجاهلية)، المصطلح الذي له دلالته النفسية على المجتمع بما يحيل إلى الذهن من وصم تلك المرحلة بالجهل والظلام والضلال.

ولكن تلك الأنساق المهيمنة على العقل الجماعي العربي لم تختف عن مسرح الحياة الإسلامية، وإنما قاومت تلك المنظومة النسقية كافة أشكال التحولات، وعبرت وتسللت لا من خلف المنظومة الإسلامية، بل من خلالها وبها إلى التمكن والثبات والاستقرار والدينامية. وهكذا استمرت في البحث عن إيجاد أقل الفرص فضلاً عن أكبرها في التسلل عبر النصوص الدينية الكبرى المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ وذلك عبر مرتكزين مهمين هما المدونة التفسيرية والمدونة السنية أو مدونة الأحاديث النبوية، وفي عصر التدوين كان كل شيء قد انتهى ورسخ وتسلل إلى تلك المدونة عبر أذرع المنظومة الجندرية التي وصلت إلى حدود التفاسير والأخبار بشكل لا يمكن تلمسه أو الالتفات إليه؛ لأنَّ النسق لا يتمظهر في النصوص بشكل بائن وسطحي وناشز، بل يندغم عبر تلونات ومخاتلات تلوذ وراء النصوص وتختفي ولا تتجلى إلا من خلال الممارسة أو السلوك أو الفعل الإجرائي.

ومن هنا كان لتلك الأنساق المختبئة وراء المقدس والديني والعقدي والمذهبي والسياسي أثرها الكبير في تجذير النظام الجندري في الثقافة العربية واستمراره؛ لأنه كما أشرنا قد أصبح جزءاً من النص الممنوح سلطةً دينية وقدسية لا يبلى ولا يموت ولا ينقض ولا يمكن إلغاؤه؛ لأنه الأساس الذي تؤسس على وفقه المباني الفقهية والأحكام الدينية والممارسات العبادية والسلوكيات الاجتماعية كافة، فحينما يرتبط ذلك النسق بكل تلك الأشكال الدينية سيكون من الصعب تحديده أو التقاطه في عصور التقديس النصوصي، وبهذا تسللت هذه الأنساق وتأسست في المجتمع وبلغت مدياتها إلى حد الدين والعبادة والسلوك والوعي والممارسة حتى وقتنا الحاضر.

فالدعوة إلى التذكير بالعربية هو أهم ما تستند إليه تلك المنظومة الجندرية في دسها للأنساق المهيمنة؛ لأنَّ ذلك سيكون عبر سلطة النص الديني الذي يبدو متسامحاً في الدعوة بالرجوع إلى الأنظمة العربية القديمة ومعارفها وخبراتها السابقة، ففي خبر عن الرسول: «**محمد بن عمر البصري، عن علي بن حسن بن بندار عن**

محمد بن يوسف الطبرسي، عن أبيه، عن علي بن خشرم، عن الفضل بن موسى قال: قال لي أبو حنيفة النعمان بن ثابت: أفيدك حديثا طريفا لم تسمع أطرف منه؟ قال: فقلت نعم، فقال أبو حنيفة: أخبرني حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم النخعي، عن عبد الله بن نجيبة، عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا زيد تزوّجت؟ قال: قلت لا، قال تزوّج تستتفّ مع عفّتك، ولا تتزوّجن خمساً قال زيد: من هنَّ يارسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تتزوجن شهيرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيدرة ولا لفوتا. قال زيد: يا رسول الله ما عرفت مما قلت شيئاً وإني بأُخراهنَّ لجاهل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألستم عرباً؟ فأما الشهيرة فالزرقاء البذيئة، وأما اللّهبرة فالطويلة المهزولة، وأما النهبرة فالقصيرة الذميمة، وأما الهيدرة فالعجوز المبرة، وأما اللفوت فذات الولد من غيرك»[76].

تأتي هذه الدعوة النسقية التي تكاد تكون متوارية خلف النص لتؤشر في ذهن المتلقي العربي المسلم بالعودة إلى سابق خبراته العربية في معرفة النساء وأحوالهنَّ وأوصافهنَّ وطرائق تشكلاتهنَّ الجندرية وفق العقلية الذكورية[77]، وهذا إنَّما يمنح الإذن للعربي المسلم أن يكتسب المشروعية من خلال النص المقدس، ويعيد تراثه الماضي الذي تسامح معه الإسلام لاستدعائه، ولا يجد العربي المسلم حرجاً إذا ما عاد إلى نسقيته العربية السابقة في سبيل اكتشاف المعرفة، وهذا ما حققته المنظومة الجندرية داخل المدونة الفقهية، وهو المحافظة على بقاء النسق العربي مستمراً وماضياً وفاعلاً من خلال سلطة النص الجديد.

ولا تجد المنظومة الجندرية حرجاً أن تجهر بكل ثقة أنَّ المرأة هي جنس من النقص والشر واللاعقل.. إلخ؛ لأنها أصبحت قادرة على ثني المرأة وإرغامها على تقبل صفاتها المخلوعة عليها: «**خيار خصال النساء شرار خصار الرجال: الزهو، والجبن، والبخل**»[78]، فلا يمكن أن تتحد صفات الأنوثة والذكورة في مجتمع تتسلط عليه الأنظمة المجندرة التي تحاول أن تضع تلك الصفات والقيم من خلال الصوغ النسقي داخل مدونة الدين، فتصبح تلك المقولات هي مشيئة الله وقول الرسول أو الصحابة والتابعين فأي اعتراض أو تكذيب أو شك أو عدم رضى يمكن للمرأة أن تضعه إزاء تلك النصوص؟: «**أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ما بال المرأتين برجل في الشهادة والميراث؟ فقال: لأنكنَّ ناقصات الدين والعقل، قالت: يا رسول الله وما نقصان ديننا؟ قال: إنَّ إحداكنَّ تقعد نصف دهرها لا تصلي، وإنكنَّ تكثرنَّ اللعنَّ وتكفرنَ العشرة تمكث إحداكنَّ عن الرجل عشر سنين فصاعداً يحسن إليها وينعم عليها إذا ضاقت يده يوماً أو خاصمها قالت له: ما رأيت منك خيراً قط ومن لم تكن من النساء هذا خلقها فالذي يصيبها من هذا النقصان محنة عليها لتصبر فيعظم الله ثوابها فأبشري. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من رجل رديّ إلا والمرأة الرديّة أردى منه ولا من**

---

76 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب3/ ح6: 338- 339

77 - كما في العديد من التصورات الجندرية التي شكلت الوجود الأنثوي وأطرته بأُطر محددة، منها: «قال صلى الله عليه وسلم تزوجوا الأبكار فإنهنَّ أطيب شيء أفواها، وأدر شيء أخلافاً، وأحسن شيء أخلاقاً، وأفتح شيء أرحاماً، أفتح أنعم وألين»، وهو ما ينحصر ضمن حدود ما تبذله للرجل وتمتعه ويستحسنه فيها. المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب3/ ح20: 341 وما بعدها العديد من الاخبار في هذا الجانب.

78 - الشريف الرضي، نهج البلاغة، سبق ذكره: 509

امرأة صالحة إلا والرجل أفضل منها، وما ساوى الله قط امرأة برجل إلا ما كان من تسوية الله فاطمة بعليّ (ع) وإلحاقها به وهي امرأة بأفضل رجال العالمين»[79].

فإذا ما تعرضت المنظومة الجندرية إلى سؤال ما، فإنَّ الإجابة الحاضرة هي: (لأنكنَّ ناقصات عقل ودين) فالنقص الديني سيكون مبرراً بظاهرة بيولوجية طبيعية مألوفة وهي الحيض، فبسببها تنحّي المنظومة الفقهية المرأة عن الصلاة والصيام، وتعود لتنتقص ذلك منها وهي منزوعة الإرادة من الظاهرة البيولوجية ومن الأمر الفقهي، ورغم ذلك تكون ناقصة إيمان؛ لأنها تقعد عن الصلاة والصيام مدة الحيض، ولكن هذا التبرير نفسه يكون تافها وغير عقلاني؛ لأنَّ نقص الإيمان يخرج الإنسان من دائرة الاعتقاد بوجود خالق أو اعتراف بالدين الإلهي؛ أي خارج حدود الإيمان، أما التوقف عن العبادة لسبب فقهي وأمر ديني، لا يعني أنَّ الفرد قد تخلى عن دينه أو إيمانه ومعتقده، بل العكس هذا امتثال للدين والفقه والعقيدة، كون المرأة توقفت كما أمرها الفقه عن الصلاة والصيام وبعض الممارسات التعبدية، فكيف يكون نقصاً في الإيمان؟ ربما يصدق عليه نقص في الممارسة العبادية -إن عُدَّ ذلك نقصاً - في الممارسة العبادية، إن كانت تحسب على العدد المكافئ بالرجل؛ أي إذا كانت المسألة عددية، فكان الأجدر بالمنظومة الجندرية أن تقول لأنكنَّ ناقصات ممارسة عبادية، أو تنقص صلاتكنَّ عددياً كل شهر، ولا يقول ناقصات إيمان. ومع ذلك، فإنَّ هذا لا يعد نقصاً ولا عيباً؛ لأنَّه امتثال لأمر ديني فقهي أولاً، وهو أمر بيولوجي خلقي لا دخل للمرأة فيه ثانياً.

أما نقص العقل، فإنَّ المنظومة الجندرية ستتحجج بمجموعة من الافتراضات التي خلقتها مسبقاً وأعادت إسقاطها على المرأة، وهو ما يتعلق بوضعها إزاء الرجل، فكل ما تسببه المرأة من إزعاج للرجولة يعد نقصاً للعقل، وهو صاحب نعمتها والإحسان، وستكون المنظومة الجندرية في الوقت نفسه حاضرة وبكل جاهزية للسؤال المفترض؛ فيما لو لم تكن امرأة كذلك، فيكون الجواب وإن كانت صالحة فهذا قدرها ومحنة لتصبر عليها، وهو ما يعلق إشارياً بالقدرية المحتومة التي أُلصقت بالمرأة وحتّمت عليها منذ حواء وخطيئتها الكبرى.

ويضاف إلى ذلك، أنَّ المنظومة الجندرية ستجد من الآي القرآني سنداً لها في اكتساب المشروعية الإلهية وإضفائها على النص الفقهي لتعكس بدلالته الجندرية قدسية النص القرآني ومشروعيته؛ وهنا تقف حدود التأويل والمراجعة والاعتراض عند حدودها الممتثلة تماماً لمقولات المفسرين والفقهاء، وستحقق ارتباطاً دلالياً بين النص الإخباري السردي المجندر وبين قدسية النص القرآني المفسر جندرياً أيضاً، وهنا يعقد التلازم الإحالي النصوصي ويشكلان بتعالقهما الدلالي الإحالي قيمة حوارية تستدعي في الذهن مباشرة دلالة النص الأول استناداً إلى ما أحال إليه النص الثاني، وهكذا تتشكل دلالات متلازمة ومتواصلة تتعالق إحداهما بالأخرى عبر حقب وأجيال ممتدة تعتمد على سيرورة النسق في ذلك كله.

---

79 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب5/ ح 11: 358. ومثله: «معاشر الناس، إنَّ النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول: فأما نقصان إيمانهنَّ فقعودهنَّ عن الصلاة والصيام في أيام حيضهنَّ، وأما نقصان عقولهنَّ فشهادة امرأتين كشهادة الرجل الواحد، وأما نقصان حظوظهنَّ فمواريثهنَّ على الأنصاف من مواريث الرجال. فاتقوا شرار النساء، وكونوا من خيارهنَّ على حذر، ولا تطيعوهنَّ في المعروف حتى لا يطمعنَّ في المنكر». الشريف الرضي، نهج البلاغة، سبق ذكره: 105- 106

ومن هذه النصوص العديدة في المدونة الفقهية نذكر منها هذا الخبر: «**قد روينا في حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ‹ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكنَّ يا معشر النساء› فقلنَ: ولِمَ وما نقص عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال: ‹أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟› قلن: بلى. قال: ‹فذلك من نقصان عقلها. أو ليس إذا حاضت المرأة لم تُصلّ ولم تصم›. قلن: بلى. قال: ‹فذلك من نقصان دينها›**»[80]. فقد تعامل النص مع ذهنية المتلقي، وهو يراهن على ما تختزنه الذاكرة الموسوعية من موضوعات استرفدتها الذاكرة من المخزون الجمعي، ولهذا كانت الإجابة (بلى) حينما أحالها النص على آية المواريث وحق الأنثيين، وفي الحالة الأخرى أيضا كانت الإجابة (بلى) حينما تمت إحالتها إلى ظاهرة بيولوجية تراها المرأة في الواقع المعيش، وتمنع عنها تأدية العبادات المنظومة المخاطبة نفسها.

لقد مورس التهميش ضد الأنوثة بشكل لا هوادة فيه ولا مهادنة في سبيل إبقائها ضمن الحدود الدنيا في المجتمع، وبالمقابل نجد الذكورة تظل هي القيمة العليا مهما كانت رديئة أو فاسدة؛ لأن ما مِنْ رجل رديء إلا والمرأة الردية أردى منه، وكذلك الصالحة، لأنَّ دعوى المصالحة والمساواة هي من أهم القضايا الخطرة على المجتمع الجندري ولا يمكن حتى التطرق إليها وحكايتها، وإذا ما بلغ المجتمع من معاملة الرسول لفاطمة، فإنَّ المنظومة الجندرية ستخرجه من الإطار البشري والاجتماعي إلى ما هو إلهي وخاص ونادر، ولا يمكن مساواته مع بقية أفراد المجتمع، ولهذا قدمت قولاً عن الرسول؛ إنَّ الله لم يساو بين رجل وامرأة قط، إلا بين علي وفاطمة لأنَّ فاطمة بلغت مستوى استثنائياً إلهيا؛ فهي أفضل رجال العالمين فحق لها أن تتساوى مع علي، وهذا ما لا يمكن أن ينسحب على باقي نساء المجتمع.

ومن هنا يبدو واضحاً أنَّ المنظومة الجندرية، وهي تقوم بالخلق والتأسيس تكون في الوقت نفسه واعية لكل تساؤل أو اعتراض أو مقولة تناقض ما تعمل على تأسيسه، فيأتي الرد منها مباشرة بصورة مندرجة تحت تغطية دينية مقدسة، لتضيع تلك بهذه، ويختلط الأمر ولا يبقى سوى ما دونته تلك المنظومة وشرّعته وسربته إلى المجتمع بصورة كلية، حتى أصبح من الراكز والصائب والمقدس والبديهي.

2-10- سفاهة المرأة.. حصافة الرجل

جاءت العديد من الأخبار التي تشير وتؤكد على سفه المرأة وحنكة الرجل وتدبيره، فقد جاء في أحد الأخبار: عن «**هارون بن مسلم، عن مسعدة بن زياد قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول لأبيه ‹يا أبه، إنَّ فلاناً يريد اليمن، أفلا أُزوّد[ـــهُ] ببضاعة ليشتري لي بها عصب اليمن؟ فقال له: يا بني لا تفعل› قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّها إن ذهبت لم تؤجر عليها ولم تخلف عليك، لأنَّ الله تبارك وتعالى يقول:** {وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً} فأي سفيه أسفه -بعد النساء- من شارب الخمر»[81]، فيتصل هذا الخبر بما

80 - البيهقي، السنن الصغير، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الوفاء، المنصورة- مصر، ط1، 1989: ج2/ ب15/ ح 1358: 103- 104

81 - أبو العباس الحميري، قرب الإسناد، سبق ذكره: ح 1222/ 315

سبقه من تسفيه المنظومة الجندرية التفسيرية للمرأة التي جاءت في تفسيرها لقوله تعالى: {وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ} لتتضامن كلا البنيتين في تسفيه المرأة، وعقلنة الرجل.

ومما يدل على أنَّ هذه القيم الجندرية هي خارجة عن المنظومة الدينية تماماً؛ أنها أخضعت الفقه والتفسير بما يخدم القوى الذكورية، وأصبح كل ما يتعارض مع القيم الذكورية مرفوضاً وخارجاً ومتهماً، فإذا كان الرجل الذي يشرب الخمر مذموماً في الأحكام الفقهية بما ورد من نصوص قرآنية تشير إلى تجنب الخمر، وأنَّ شرب الخمر موسوماً بالتحريم وارتكاب الكبائر، فإنَّه مع ذلك لا يهبط إلى مستوى المرأة، فقد يكون شارباً للخمر وغير مؤتمن، إلا أنَّه ينماز بالقيم الفحولية المرغوبة لدى المنظومة الجندرية، وإذا ما أرادت المنظومة الفقهية تسفيهه، فإنها تكون على حذر من إسقاطه إلى درك المرأة، فيحتفظ بقيمة مميزة دائماً ما تحفظ له كرامته الفحولية التي تجعله أعلى درجة من النساء، فيكون سفيها من بعد النساء، لكي تبقى تلك الصفة هي الصفة الأنثوية التي وصمت بها المرأة بلا منازع كما جاء عن الحسن البصري بأن: «**السفهاء: النساء والصغار، والنساء أسفه السفهاء**»[82] حتى تصل إلى فقهاء العصر الحديث فيكون: «‹**من ائتَمَنَ امرأةَ حَمَق**› (...) ‹**عن علي (ع) قال: المرأة لا يوصى إليها؛ لأنَّ الله -عز وجل- يقول:** {وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ}› (...) وفي خبر آخر قال: سُئل أبو جعفر (ع) عن قول الله عز وجل: {وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ} قال: لا تؤتوها شرّاب الخمر ولا النساء»[83].

2-11- سردية الرحلة: الإسراء والمعراج والصوغ الجندري

لقد سعت تلك المدونة الفقهية إلى سد كل ما يسمح للمرأة بالخروج من أسر التقييد العقلي والانحسار الجسدي والاختزال الشهواني الجنساني، لتظل قابعة تحت سلطة الرجل وهيمنة القوى الذكورية، فعلى الرغم من زخم السرديات الفقهية الدينية ذات القدسية العليا لدى المسلمين التي تحرص على موضعة المرأة بحسب الرغبة الذكورية وما تشكله لها تلك الرؤية الأبوية، فإنها تردفها في كل مرة بالعديد من الأخبار والسرديات التي تكبح كل محاولة أو ربما إرهاصة (إن وجدت على سبيل الفرض)[84] للخروج من هذا الأسر الكوني الهائل، لذلك كانت الأخبار السردية الفقهية تترادف في فرض التصور الذكوري على المرأة على أنه هو الهدف الإسلامي المشرعن عن الله تعالى والرسول والقرآن الكريم، وتستمر عمليات التدجين والترويض عبر مسيرة طويلة من

82 - الحسن البصري، تفسير الحسن البصري، سبق ذكره: 258

83 - الحر العاملي وحسين النوري، وسائل الشيعة ومستدركها، سبق ذكره: ج16/ ب53/ ح3، ح2: 550

84 - «عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن ابن محبوب، عن مالك بن عطية، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر (ع) قال: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ماحق الزوج على المرأة؟ فقال لها: تطيعه ولا تعصيه ولا تتصدق من بيته إلا بإذنه ولا تصوم تطوعاً إلا بإذنه ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها. فقالت: يا رسول الله، من أعظم الناس حقاً على الرجل؟ قال: والِدُهُ، فقالت: يا رسول الله من أعظم الناس حقا على المرأة؟ قال: زوجها، قالت فما لي عليه من الحق مثل ما له عليَّ؟ قال: لا، ولا من كل مائة واحدة، قال: فقالت: والذي بعثك بالحق نبياً لا يملك رقبتي رجل أبداً». الكليني، الكافي- الفروع، سبق ذكره: ج5/ ب339/ ح1/ 306. و: المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب4/ ح31: 350. مع اختلاف السند وبعض المفردات.

مسيرة التدوين الفقهي حتى تصل إلى ما هو مستقبلي، وما يتعلق بالمصير الإنساني بحسب التصور الإسلامي، فاذا كانت الجنة هي حلم كل إنسان مسلم على الأقل، فإنَّ المدونة الفقهية هيمنت حتى على تلك الصورة الموعودة في الآخرة، لتمتد إليها وتشكلها بحسب رغباتها الذكورية والجندرية، لتتحوَّل قصة الإسراء والمعراج إلى أداة جديدة تضاف إلى ما تمتلكه القوى الذكورية من أدوات في تدجين الأنثى: «**الوراق عن الأسدي، عن سهل، عن عبد العظيم الحسني، عن أبي جعفر الثاني، عن آبائه (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع): دخلت أنا وفاطمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدته يبكي بكاءً شديداً، فقلت: فداك أبي وأمي يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ فقال: يا علي ليلة أسري بي إلى السماء رأيت نساء من نساء أمتي في عذاب شديد، فأنكرت شأنهنَّ فبكيت لما رأيت من شدة عذابهنَّ.**

رأيت امرأة معلقة بشعرها يغلي دماغ رأسها، ورأيت امرأة معلقة بلسانها والحميم يصب في حلقها، ورأيت امرأة معلقة بثدييها، ورأيت امرأة تأكل لحم جسدها والنار توقد من تحتها، ورأيت امرأة قد شد رجلاها إلى يديها وقد سلط عليها الحيات والعقارب، ورأيت امرأة صماء عمياء خرساء في تابوت من نار يخرج دماغ رأسها من منخرها وبدنها متقطع من الجذام والبرص، ورأيت امرأة معلقة برجليها في تنّور من نار، ورأيت امرأة يقطع لحم جسدها من مقدمها ومؤخرها بمقاريض من نار.

ورأيت امرأة يحرق وجهها ويداها وهي تأكل أمعاءها، ورأيت امرأة رأسها رأس خنزير وبدنها بدن الحمار وعليها ألف ألف لون من العذاب، ورأيت امرأة على صورة الكلب والنار تدخل في دبرها وتخرج من فيها والملائكة يضربون رأسها وبدنها بمقاطع من نار.

فقالت فاطمة (ع): حبيبي وقرة عيني أخبرني ما كان عملهنَّ وسيرتهنَّ حتى وضع الله عليهن هذا العذاب؟

فقال: يا بنيتي أمّا المعلقة بشعرها، فإنها كانت لا تغطي شعرها من الرجال. وأمّا المعلقة بلسانها، فإنها كانت تؤذي زوجها، وأما المعلقة بثدييها، فإنها كانت تمتنع من فراش زوجها، وأمّا المعلقة برجليها، فإنها كانت تخرج من بيتها بغير إذن زوجها، وأما التي كانت تأكل لحم جسدها، فإنها كانت تزيّن بدنها للناس، وأمّا التي شد يداها إلى رجليها وسلط عليها الحيات والعقارب، فإنها كانت قذرة الثياب، وكانت لا تغتسل من الجنابة والحيض، ولا تتنظف، وكانت تستهين بالصلاة، وأمّا العمياء الصماء الخرساء، فإنَّها كانت تلد من الزنا فتعلقه في عنق زوجها، وأمّا التي كانت يقرض لحمها بالمقاريض، فإنَّها كانت تعرض نفسها على الرجال، وأمّا التي كانت يحرق وجهها وبدنها، وهي تأكل أمعاءها فإنَّها كانت قوّادة، وأمّا التي كانت رأسها رأس خنزير وبدنها بدن الحمار، فإنَّها كانت نمّامة كذابة، وأمّا التي على صورة الكلب والنار تدخل في دبرها وتخرج من فيها، فإنَّها كانت قينة نواحة حاسدة. ثم قال صلى الله عليه وسلم: ويل لامرأة أغضبت زوجها، وطوبى لامرأة رضي عنها زوجها»[85].

85 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب4/ ح24: 348- 349

كل أنواع العذاب التي رآها النبي بحسب النص السردي[86] تدور حول محور واحد رئيس، وهو تدجين المرأة المطيعة[87]، والمهادنة، والراضخة، والمستسلمة، والمسلمة أمرها للرجل[88]، والقانعة بصورتها المشكلة ذكورياً، ومؤمنة بها تمام الإيمان. هذا هو المحور الوحيد الذي دارت حوله كل تلك السردية؛ لأنها ببساطة تنطلق من نظام جندري لا علاقة له بأمور حياتية أخرى، فكل عقاب أصاب تلك النساء كان بسبب الإخلال في معادلة القوى الذكورية والأنثوية التي لا تسمح به المنظومة الفقهية المجندرة؛ لأنَّ المرأة على وفق التصور الذكوري السائد لا تخرج عن دائرة الاتباع للرجل والمديونية له لفضله عليها، إذ علّقت تلك التصورات الذكورية قيمة النساء وحياتهنَّ، بل وجودهنَّ بشكل عام على قيمومة الرجل، ولهذا لا يمكن لامرأة بأية حال من الأحوال أن تردّ دَيْن الرجل، ولا أن تكافئ صنيع الرجل لها، على أنَّ هذا التصور قد أخذ مسحته الدينية وصبغته القدسية من خلال إدماجه داخل منظومة الدين بوساطة المدونة الفقهية، فأصبح من المسلّم به أنَّ المرأة لا يتحقق وجودها إلا من خلال الرجل، بل هي خلقت لأجله، فاستحق عليها حقوقاً لا تقوى على ردها حتى إنَّها «لو كان به قرحة فلَحَستها أو ابتدر منخراه صَدِيداً أو دماً ثم لحسته ما أدت حقه»[89].

وليس من الغريب أن يسلّم العربي بما هو عجائبي؛ لأنَّ الحكاية السردية ستؤسس بنيتها على وفق ما وُضع في ذهن المتلقي سابقاً، وستقوم حينئذ باستدعاء تلك اللمحة لتبني عليها حكاية سردية عجائبية تحرز اليقين لدى المتلقي؛ لأنَّه (أي المتلقي) حينها ستتعالق في ذهنه تداعيات سابقة ترتبط بعلاقة المرأة مع الحيوان أو الحمار بشكل أخص، إذ يجد في مخزونه التراثي أنَّ المرأة والحمار والكلب هم من يحجبون عن الرجل صِلاته الروحية مع السماء عند الصَلاة، فسيكون حديث كهذا: «**حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة. حدثنا إسماعيل بن عليه... قال وحدثني زهير ابنُ حرب. حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن يونس، عن حميد بن هلال، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم› إذا قام أحدكم يصلي، فإنه يستره إذا كان بين يديه مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ. فإذا لم يكن بين يديه مثلُ آخرةِ الرَّحْل، فإنه يقطع صلاته الحمارُ والمرأةُ والكلب الأسود›. قلتُ: يا أبا ذر! ما بال الكلب الأسود من الكلب الأحمر من الكلب الأصفر؟ قال: يا بن**

---

86 - ابن ناصر الدين الدمشقي، السراج الوهاج في ازدواج المعراج، تحقيق: صالح بن محمد بن عبد الفتاح بن عبد الخالق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- دولة الكويت، ط1، 2014: 29

87 - فسر قوله تعالى: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) يعني فرض الله على الرجال أن ينفقوا على النساء ثم مدح النساء فقال: {فَالصّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ} يعني تحفظ نفسها إذا غاب عنها زوجها، وفي رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر (ع) في قوله: (قُنِتُتٌ) أي مطيعات». المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ب4/ح 27: 249.

88 - وفيه: «الصدوق، عن أبيه، عن سعد، عن الخشاب، عن علي بن حسان عن عمه عبد الرحمن، عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».. المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ب4/ ح29: 350. ومثله: «وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ‹لو كنت آمراً أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ولو أنَّ رجلاً أمر امرأته أن تنتقل من جبل أحمر إلى جبل أسود أو من جبل أسود إلى جبل أحمر كان ينبغي أن تفعل›». سعود بن عبد الله الفنيسان، مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير، مكتبة التوبة، الرياض- المملكة العربية السعودية، ط1، 1992: ح266: 161

89 - ابن أبي شيبة، المصنف، سبق ذكره: ج6/ ب152/ ح17396: 208. ومثله: «حدثنا وكيع، عن قرة بن خالد، عن امرأة من بني عطارد يقال لها ربيعة قالت: قالت عائشة: يا معشر النساء، لو تعلمنَّ حق أزواجكنَّ عليكنَّ لجعلت المرأة منكنَّ تمسح الغبار، عن وجه زوجها بحرّ وجهها». المصدر نفسه: ج6/ب 152/ ح17403: 210

أخي! سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتني فقال: ‹الكلب الأسود شيطان›»[90]، ولكن لا يقطع الرجل الصلاة وإن اعترض المصلي: «**وكره عثمان أن يُستقبل الرجل وهو يصلي، وإنما هذا إذا اشتغل به، فأما إذا لم يشتغل فقد قال زيد بن ثابت: ما باليت، إنَّ الرجل لا يقطع صلاة الرجل**»[91]؛ لأنَّ الرجل هو المركز الذي تدور حوله مجمل قضايا الجندر التي تبني المجتمع والثقافة والدين على وفق تصوراتها وأهدافها والغايات المرجوة. لقد «تطور قصص المعراج، ونما نمواً واسعاً على مرّ العصور، وتدرج في هذا النمو تدرجاً طبيعياً من آية في القرآن الكريم، إلى حديث في السنة ذي أسانيد متعددة، إلى قصة في السيرة كما رواها ابن اسحاق (768م) متكاملة المعنى والإطار، ثم إلى رؤيا رمزية عند المتصوفة كالبسطامي (875م)، وابن عربي (1240م)، وغيرهما ثم أخذ يتلبس أشكالاً أدبيه وأطراً شعبية كما هو الأمر عند أبي العلاء المعري (1058م) في رسالة الغفران ورواية ابن عباس في صورتها الشعبية»[92]، وتعددت صورها ورواياتها حتى أورد كل من ابن كثير والسيوطي حوالي أربعين رواية لحديث المعراج[93]، ولا يخفى ما لهذا القصص من عجائبية فائقة استطاعت أن تخلق أجواءً سردية من الرحلات والعروج والالتقاء بالكائنات والمخلوقات والأنبياء والرسل ورؤية الجنة والنار والمعذبين والخ من حكايات عجائبية انتمت إلى مصاف الأدب العجائبي وتركت أثراً كبيراً في ظهور أنواع أدبية عديدة تنتمي إلى سردية الإسراء والمعراج، حتى في الآداب العالمية[94].

فالعجائبي يحقق، بحسب تودوروف، ثلاث وظائف[95] تتعلق الأولى بما هو خارج النص؛ أي بالمجتمع، إذ يتاح وصف وحكاية ما لا يمكن حكايته ووصفه واقعياً، ويتمكن بذلك من انتهاك الممنوع في العرف الاجتماعي والوصول إليه وتشكيله، والأخرى تتعلق بالنص نفسه وهي القيمة الأدبية الملازمة للعجائبي نفسه، وأثره بأن يخلق في نفس المتلقي أثراً خاصاً، خوفاً أو هولاً أو مجرد حب استطلاع. فالجمع بين المألوف واللامألوف أو

---

90 - مسلم، صحيح مسلم، سبق ذكره: ب50/ ح 265- (510): 365. و: ب50/ح266 (511). و: ابن أبي شيبة، المصنف، سبق ذكره: ج2/ ب101/ح 2917: 132

91 - البخاري، صحيح البخاري، سبق ذكره: ب 102: 107. ومما يفضح هيمنة المنظومة الجندرية على المدونة الفقهية أنَّ هناك أخبار اً تعرضت للنقض والتكذيب أو وقعت في التناقض البائن، وفيما يتعلق بهذه المسألة فإنَّ حديثاً آخر يفضح تلك السلطة الذكورية التي عبرت بأنساقها إلى المدونة الفقهية، إذ نجد: «حدثنا عمرو الناقد وأبو سعيد الأشج قالا: حدثنا حفص بن غياث. ح قال وحدثنا عمر بن حفص بن غياث (واللفظ له) حدثنا أبي. حدثنا الأعمش. حدثني إبراهيم عن الأسود، عن عائشة. قال الأعمش: وحدثني مسلم عن مسروق عن عائشة. وذكر عندها ما يقطع الصلاة. الكلب والحمار والمرأة. فقالت عائشة: قد شبهتمونا بالحمير والكلاب. والله! لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وإني على السرير. بينه وبين القبلة مضطجعة. فتبدو لي الحاجة. فأكره أن أجلس فأوذي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنسل من عند رجليه». مسلم، صحيح مسلم، سبق ذكره: ب51/ ح270: 366. ومثله: ح271، وح 272، و: البخاري، صحيح البخاري، سبق ذكره: ب 102/ ح511: 107.ومثله، المصدر نفسه: ح514، وح 515

92 - نذير العظمة، المعراج والرمز الصوفي، قراءة ثانية للتراث، دار الباحث. د.ت: 9

93 - المرجع نفسه: 59

94 - وردت إشارة واحدة قصيرة في القرآن عن هذه القصة وهي ما جاء في قوله تعالى في سورة الاسراء: «{سُبْحانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ إِلى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}، إلا أنَّ «هذه الإشارة قد أثارت منذ البداية فضول المسلمين الورعين الأتقياء؛ ذلك أنَّ قصصاً كثيرة غنية بمختلف المفهومات انتشرت فجأة انتشاراً سحرياً. واشتعل خيال الشرق القوي الناشط، وسرعان ما أحيطت هذه القصة بتفاصيل غنية، ووضعت لها أحداث ومناظر جد مختلفة ومدهشة. والحق أنَّ الروايات المختلفة التي حيكت حول هذه القصة تملأ بتفاصيلها الكثيرة وتفريعاتها مجلدات ضخمة، فقد حاك الخيال الخصيب الجامح حول هذه الفقرة القرآنية القصيرة روايات كثيرة، ومن ثم تطورت القصة ونمت في صورة أحاديث رواها الرواة وأسندوها إلى النبي الذي يفترض أنه روى لأصحابه ما شاهده من العجائب في تلك الليلة التي لا تنسى». ميجيل آسين، أثر الإسلام في الكوميديا الإلهية، ترجمة: جلال مظهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر- القاهرة، مكتبة الاسرة، 2015: 23 وما بعدها. وفيها انظر مجموع الروايات التي دارت حول قصة الإسراء والمعراج.

95 - تزفتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة: الصديق بو علام، مراجعة: محمد برادة، دار شرقيات، ط1، 1994: 95- 96

الحقيقي واللاحقيقي، والاستناد إلى التردد أو المبدأ الاحتمالي لتقبل الأحداث، كل ذلك من شأنه أن يستفز المتلقي ويثير سكون نظام البديهيات الطبيعية لديه، مما يدفعه إلى إعادة تمثل النص وقراءته وفي كل مرة يزداد تعلقه بالنص وتعدد وفق ذلك رؤاه وتأويلاته وفي كل مرة يجد نفسه إزاء موقفين، الأول يتعلق بما هو خرافي أو عجائبي يفارق الواقع والمعقول، والآخر يتعلق بما هو ديني وقدسي وموثوق، ولكنه في كل مرة سيُكسب النص حقيقته الفعلية وواقعيته، وإن كانت غرائبية مفارقة للمألوف؛ لأنها ببساطة وردت عن مدونة دينية قدسية موثوقة[96].

وفضلاً عن ذلك تمنح رحلة العجائبية للنص قيمة جمالية تنعش النص وتحقق قوته الأدبية في إثارة المتلقي واسترساله القرائي؛ لأنه يثير في نفسه الفضول الأدبي، وفي الوقت نفسه يحقق العجائبي القدرة على خدمة السرد والاحتفاظ بالتوتر بين الحركة والجمود، وهي الوظيفة الثالثة. وبناءً على وجود العجائبي فإن لحظة الجمود والتراسل السردي ستنكسر ويختل توازن المحكي الذي يسوغ استمرار ذلك المحكي، لتتحد الوظيفتان الاجتماعية والأدبية لفوق الطبيعي شيئاً واحداً ليتصل بانتهاك القانون سواء داخل الحياة الاجتماعية أم داخل المحكي، لأنَّ تدخل ما فوق الطبيعي يشكل دائماً تكسيراً في نسف القواعد القائمة سابقاً[97].

ومن هنا كان لقصة الإسراء والمعراج الأثر البالغ في نفوس المتلقين في المجتمع العربي الإسلامي؛ لأنَّ العوالم المشكلة داخل نصوص المعراج لم تكتسب أهميتها أو حقيقتها من داخل النص نفسه بوصفه نوعاً أدبياً ينتمي إلى عوالم غيبية تخييلة، بل يكتسب أهميته وحقيقته من موقع النص نفسه داخل الثقافة الإسلامية التي لا تنظر إليه على أنَّه أدب فحسب، بل بما يتعلق ببعده الديني والقدسي، فضلاً عن ارتباطه بما وفر له العلماء من القول بإمكان خرق المألوف والعادة والطبيعي من قبل الأولياء والأنبياء والصالحين، الأمر الذي يجعل من نصوص المعراج نصوصاً مستساغة ومقبولة ضمن الساحة الثقافية الإسلامية، وهذا بالتأكيد ما عوَّل عليه العديد من مؤلفي نصوص المعارج كالفلاسفة والمتصوفة الذين رأوا فيه تجسيداً لمقولاتهم في سلوك الروح إلى بارئها عبر مقامات مخصوصة، وجعلوا من المعراج دلالة على الترقي والتدرج في التطهير النفسي والتحقق بالعلوم، أمثال ابن عربي والغزالي والصيادي وآخرين[98] الذين راهنوا أيضاً على لعبة التوثيق والإسناد وهي آلية السلسلة الروائية، التي تسند الحديث: حدثنا فلان عن فلان عن فلان عن فلان، لإكساب النص نوعاً من الموثوقية واضفاء القدسية والواقعية أو الحقيقة على النص المسرود، حتى أصبحت هذه الظاهرة الإسنادية من أبرز خصائص النص السردي القديم[99]، الظاهرة التي تأسست بفعل رواة الحديث النبوي الشريف.

---

96 - لؤي علي خليل، عجائبية النثر الحكائي- أدب المعراج والمناقب، دار التكوين، سورية - دمشق، 2007: 85

97 - تزفتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، سبق ذكره: 149- 150

98 - لؤي علي خليل، عجائبية النثر الحكائي، سبق ذكره: 20 وما بعدها. و: سعيد الوكيل، تحليل النص السردي- معارج ابن عربي نموذجاً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998: 37- 45

99 - كمال أبو ديب، الأدب العجائبي والعالم الغرائبي في كتاب العظمة وفن السرد العربي، دار الساقي بالاشتراك مع دار أوركس للنشر، بيروت -لبنان، ط1، 2007: 8-9.

لقد تعاملت النصوص السردية الفقهية وحتى التفسيرية مع العقل الجماعي بالجانب الديني نفسه الذي تعاملت به كل الأديان السماوية وبما فيها الإسلام والقرآن الكريم، وهو منطق الترغيب والترهيب، المنطق الوحيد الذي يمكن أن يسيّر الإنسان بتشكلاته الجماعية في بدايات تكوينه العقلي، فكل ما لا يرتضيه الدين يقدمه إلى المجتمع بقالب الترهيب والوعيد، وكل ما يحاول تأسيسه يقدمه بقالب الترغيب؛ لأنَّ من السهل اخضاع الوعي المجتمعي بالميتافيزيقي، وليس من مصلحته إيقاظه، بل محاولة إقناعه دائماً بأنه غير قادر على استيعاب المقولات المنطقية والعلمية والقانونية أو حتى الاجتماعية والنفسية، فيكون التركيز على هذه المعادلة بين قوى جذب الترغيب، وبين قوى شد الترهيب لتسيير الحياة الجماعية داخل مجتمع ما بما يحفظ القيمة الإنسانية لذلك التشكيل الاجتماعي.

ومن هنا جاءت المنظومة الجندرية لتستغل المعادلة نفسها في تسليط أنساقها الذكورية لتستغل دوافع الإيمان الغيبي المطلق لتبسط هيمنتها وتفرض سلطتها الخطابية في الإقناع، ولنا أن نتصور حال المرأة المسلمة حينما يبلغها تفسير آية ما من آيات القرآن الكريم تحثها على أن تكون تابعة ومنقادة للرجل وأنَّها لا تساوي إلا نصف رجل، ولنا أن نتصور ما يعنيه لها خبر مسند عن رسول الله يلزمها أن تكون لعبة الرجل ومتعته وآلة تفريغ شحناته الجنسية، فقد أسهمت تلك المشاهدات التي تصورتها الأخيلة عن العذاب المحقق المحدق بالمرأة بخلق هزة داخل نفس كل مسلم، الأمر الذي ترك أثره في الرسول نفسه بحسب الحكاية ببكائه لذلك المنظر، وهو ما يخلق تصوراً مخيفاً مرعباً يحفر في سيكولوجيا الجماعة بضرورة الالتزام والتطبيق، وبذلك يحقق النص غاياته ورسالاته التي يريد توجيهها إلى المتلقين.

ولنا أن نتصور ما يعني لها خبر المعراج عن الآخرة وتصوير تلك النساء اللواتي أغضبنَ أزواجهنَّ أو لم يرضخنَ لرغبتهم الجنسية أو لم يسعينَ لإشباعها، أو لأنَّها لم تكن بالمستوى الشهواني المرغوب لدى الرجل/ الزوج. وبالقدر نفسه لنا أن نتصور ذلك كله بالنسبة إلى الرجل الذي يبلغه ذلك كله عن القرآن والرسول والسنة، فكيف ستكون المعادلة الجندرية داخل هذا المجتمع.

بالتأكيد ستكون لصالح القوى الجندرية التي أسست كل ذلك وأحرزته فعلاً[100] داخل مدونة دينية فقهية تفسيرية عظمى، استندت في جميع مقولاتها إلى النص القرآني أو الحديث النبوي أو السنّة عن أصحابه وتابعيه، فضلاً عن السلطة التي يكتسبها النسق من خلال قوة السرد في الإقناع والشد والتخييل والحكي، فيكون المجتمع مأسوراً لامحالة لكل تلك الأشكال النصية؛ لأنَّها مقدسة ودينية واعتقادية ومذهبية وعقدية وحكائية سردية.

---

100 - «عن الصادق (ع) قال: انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرية كان أصيب فيها ناس كثير من المسلمين فاستقبلته النساء يسألنَّ عن قتلاهنَّ فدنت منه امرأة فقالت: يا رسول الله ما فعل فلان؟ قال: وما هو منك؟ فقالت: أخي فقال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد ففعلت ذلك، ثم قالت: يا رسول الله ما فعل فلان؟ فقال: وما هو منك؟ قالت: زوجي فقال: احمدي الله واسترجعي فقد استشهد فقالت: واذلاه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ماكنت أظن أنَّ المرأة تجد بزوجها هذا كله حتى رأيت هذه المرأة» المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب4/ ح32: 350

12-2- تجهيل الأنوثة وتحجيب العقل:

إضافة إلى كل أنواع الإقصاء والتهميش التي مورست تجاه المرأة، على العكس تماماً مع الرجل الذي تم التعامل معه على أنَّه المركز والمحور والقيمة العليا، فإنَّ المنظومة الجندرية سعت أيضاً إلى تجهيل المرأة ومنعها من التعلم والكتابة؛ لأنَّ ذلك سيسهم في خلق وعي نسوي جديد خارج إطار القوى المهيمنة، وخلافاً لما أعدته المنظومة الجندرية، لذلك تم التأكيد على شرعنة تجهيل المرأة من خلال الأخبار السردية الواردة عن الرسول أو من صحبه وتابعيه، ففي خبر مطوّل نذكر منه: «**القطان، عن السكري، عن الجوهري، عن جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه، عن جابر الجعفي قال: سمعت أبا جعفر (ع) يقول: (...) وليس للنساء من سروات الطريق شيء ولهنَّ جنبتاه، ولا يجوز لهنَّ نزول الغرف، ولا تعلم الكتابة، ويستحب لهنَّ تعلم المغزل وسورة النور، ويكره لهنَّ تعلم سورة يوسف**»[101]، فالإقصاء عن التعليم والكتابة هو الضربة القاصمة التي ستوجه إلى المرأة لتجهيلها وجعلها سهلة منقادة وراء سلطة النص الديني المجندر، وحبسها ضمن دائرة المحرم والتابو، وحجرها داخل صومعة الذكورة وفي قعر البيت: «**ويكره للنساء الحرائر الشباب أن يكون سكناهنَّ في الغرف الشارعات، ويكره لهنَّ تعلم الكتابة، وقراءة الكتب، ولا ينبغي لهنَّ أن يتعلمنَّ من القرآن سورة يوسف خاصة دون غيرها، ويتعلمن سورة النور**»[102]؛ لأنَّ في تعليمهنَّ وقراءة الكتب خروج عن سلطة الذكورة وفرصة للخروج من دائرة الوهم التي صاغتها لها نصوص مجندرة عبرت إليها الأجيال لتبقيها مدجَّنة ومروَّضة ومتقبلة للواقع الذي رسمه لها الرجل[103].

إنَّ هذه المباني الفقهية قد أخذت بالتراتبية على نحو ما بدأ منذ القرون الأولى الهجرية التي تمت بها جندرة تلك المباني، ومنذ أن تم حسر القرآن بكتابته وقراءته وتعليمه وتعلّمه على الذكور، إلَّا ما هو شاذ ومفارق ونادر من بعض النماذج النسائية إنْ وجدت، بل سعت تلك المباني الفقهية إلى وضع العديد من المحرمات التي تقيد تعامل المرأة مع القرآن، من حيث اللمس والقراءة والاطلاع، وصاغت على وفق نفوذ ذكوري أن تخلق قوة قدسية رهيبة بين القرآن والمرأة، يضاف إليها ما للقرآن من قوى غيبية تتعلق بالشفاء والبركة وزيادة الرزق والحفظ من الشياطين.

وهذا ما يجعل المرأة بطبيعة الحال سهلة الانقياد؛ لأنها لا تجد إزاءها إلَّا الرجل ولا يبلغها إلا ما أراده هو أن تصل إليه من نصوص دينية تهيمن على وعيها وتجعلها مأسورة وقانعة بالحقيقة المفترضة؛ لأنها ببساطة لا ترى ما هو خلاف ذلك، يعمل على منحها القدرة على الانفلات من الأسْر العقلي وكسر التابوهات المفروضة

101 - المصدر نفسه: ج100/ ب5/ ح1: 354- 355

102 - محمد علي أيازي، تفسير القرآن المجيد المستخرج من تراث الشيخ المفيد، سبق ذكره: 375. ومثله: «عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق البنات: ««لا تنزلوهنَّ الغرف، ولا تعلموهنَّ الكتابة، وعلموهنَّ الغزل وسورة النور». الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل، سبق ذكره: مج2/ 787. ومثله: «علي بن إبراهيم، (عن أبيه) عن هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع): لا تبدأوا النساء بالسلام، ولا تدعوهنَّ إلى الطعام فإنَّ النبي (ع) قال: النساء عَيٌّ وعَوْرةٌ فاستروا عليهنَّ بالسكوت واستروا عوراتهنَّ بالبيوت»: الكليني، الكافي- الفروع، سبق ذكره: ج5/ب 367/ ح1/ 322

103 - محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق، مصر. د. ت: 23- 24

عليها، ولكي تستغل المنظومة الجندرية هذه المرأة كامل الاستغلال استحبت لها أن تغزل أو تصنع الغزل: «**وقال صلى الله عليه وسلم: نعم اللّهو المغزل للمرأة الصالحة**»[104]، فإذا كانت المدونة الفقهية قد حرَّمت اللّهو[105] عما يشغل العبد عن العبادة، فإنَّ اللّهو للنساء يكون حسناً لأنه يبعدها ويصرفها عن الأذى والإغواء والفاحشة، وهو في الحقيقة سيبعدها تماماً عن دائرة التفكير والتأمل والسؤال، بل ستكون حالها حال ذلك المغزل الذي يفتل نفسه بحركة لولبية مستمرة، وهو في كل دورة يكبل نفسه بأكوام من الخيوط المفتولة.

وعلى هذا الأساس تم إقصاء المرأة من أهم المركزيات التي استأثرت بها الفحولة، فلا يسمح لها بالتدخل في شؤون تلك المركزيات فضلاً عن اعتلائها: «**القطان، عن السكري، عن الجوهري، عن جعفر بن محمد بن عمارة عن أبيه، عن جابر الجعفي قال: سمعت أبا جعفر (ع) يقول: ‹ليس على النساء أذان ولا إقامة، ولا جمعة ولا جماعة، ولا عيادة المريض ولا اتباع الجنازة، ولا إجهار بالتلبية ولا الهرولة بين الصفا والمروة، ولا استلام الحجر الأسود، ولا دخول الكعبة، ولا الحلق إنما يقصرن من شعورهنَّ، ولا تولّى المرأة القضاء، ولا تولّى الإمارة ولا تستشار، ولا تذبح إلا من اضطرار (...) ولا تجوز شهادة النساء في شيء من الحدود ولا يجوز شهادتهنَّ في الطلاق، ولافي رؤية الهلال ويجوز شهادتهنَّ فيما لا يحل للرجل النظر له (...) ولا يجوز لها أن تحج تطوعا إلا بإذن زوجها، ولا يجوز للمرأة أن تدخل الحمام فإنَّ ذلك محرم عليها، ولا يجوز للمرأة ركوب السرج إلا من ضرورة أو في سفر**»[106].

ومن هنا تم إحكام الأدوار الاجتماعية، والسياسية، والأسرية وحتى الدينية الفقهية بين الذكورة والأنوثة، وأحرز الرجل معظم الأدوار التي تنسجم مع فحولته، وتركت بعضها التي تسهم في تهميش الأنوثة وتسفيلها وإقصائها، وتثبت في الوقت نفسه نقصها العقلي والديني والثقافي والتكويني.

لقد حاولت المنظومة الجندرية أن تحافظ على الأدوار الفحولية التي تضمن قيمة الذكورة في المجتمع وتؤكد أحقيتها الدينية والإلهية، وبالمقابل أسست للأنوثة أدوارها التي تجعلها دائماً منقادة إلى الرجل ومركونة إليه، ولا تشكل داخل المجتمع سوى الهامش والتافه والوضيع، حتى بات من البديهي لدى أفراد المجتمع أنَّ ذلك الدور هو دور ذكوري، وهذا الدور هو دور أنثوي، لا يمكن الجمع بينهما ولا الخلط ولا التبادل، فالرجل لا يسمح له أن ينزل إلى دور من أدوار المرأة؛ لأنَّ ذلك يعد تهويناً للقيم الفحولية، وكذلك المرأة لا يسمح لها باعتلاء ما هو للرجل لأنَّ ذلك يُعد تجاوزاً، وخرقاً، وخروجاً عن القيم المحددة للأنوثة، ولهذا ستلعنها الملائكة وسيحلّ عليها غضب الرّب وتتعرض للضرب والتعنيف إلخ.

---

104 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب5/ ح20: 358

105 - في حين جعلت المدونة الفقهية المجندرة لهو الذكورة مختلف تماماً: فعن «أبي سعد، عن حماد بن يعلى، عن أبيه، عن حماد بن عيسى عن زرارة، عن أبي جعفر (ع) قال: لهو المؤمن في ثلاثة أشياء: التمتع بالنساء ومفاكهة الإخوان والصلاة بالليل». المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب9/ ح7: 383.

106 - المجلسي، بحار الأنوار، سبق ذكره: ج100/ ب5/ ح1: 356

لقد أسهمت المرحلة الإسلامية[107] بمدونتيها التفسيرية والفقهية بتعميق الثقافة الجندرية بشكل فاعل، بل أسست فضلاً عن ذلك العديد من القضايا الجندرية التي عمَّقت صور الاختلاف بين الذكورة والأنوثة، وكانت في الوقت نفسه أداة للقوى الجندرية في تمرير الأنساق وعبورها من خلالها، وبخلاف كل مظاهر الخطابات المجندرة، فإنَّ هذه الخطابات المضمنة في المدونتين قد أكسبت النسق قوة ثبوتية، ونزعة وثوقية، ومسحة قدسية، استطاع من خلالها أنْ يضمن بقاءه لأجيال تمتد حتى وقتنا الحاضر.

107 - نشدد على التعبير بالـــ (المرحلة الإسلامية) وليس الإسلام/ الدين، فثمة فرق بين الإسلام ديناً والمرحلة الإسلامية بوصفها مدة زمنية مرّت بها الجزيرة العربية، فتخللتها العديد من المؤلفات والسرديات والمرويات التي دخلت منظومة المعارف العربية تحت شرعية الدين، دون ما يحدد قطعاً بثبوتها وعائديتها إلى المتن الديني، الذي خضع هو الآخر لاجتهادات العلماء والفقهاء وأصحاب المدارس والفلسفات والتصوف، بل العكس من ذلك هو ما وجدناه من تفاوت وتعارض بائن بين مقولاتها، وعلى نحو ما مر بنا من اعتراض السيدة عائشة زوج الرسول على حديث سمعته فأنكرت حقيقته، ومثل ذلك كثير، بل لا يمكننا وضع الحد الفاصل بين ما هو ديني وما هو تاريخي، كما أننا لسنا بصدد دراسة الدين والتحقق من مقولاته بقدر ما نسعى باهتمام جاد إلى فحص المنظومة الثقافية للمرحلة العربية من قبل الإسلام إلى ما بعده.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com